الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أحمد دراية – ادرار

كلية الآداب
واللغات

قسم اللغة والأدب
العربي

القضايا الاجتماعية في رواية" تلك المحبة"
للحبيب السائح

مذكرة تدرج مقدمة لنيل شهادة ماستر في اللغة والأدب العربي
تخصص: دراسات جزائرية في اللغة والأدب

إعداد الطالبتين :
- باجدي عائشة
- بومدين سمية

إشراف الأستاذة:
د/ سعاد شابي

السنة الجامعية : 1435 هـ / 1436هـ
2014 م / 2015م

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

أهدي ثمرة هذا العمل المتواضع:

إلى من سقتني كؤوس العلم والمحبة وأفنت عمرها في تربيتي وأنعم الله علي بنعمها التي لا أحصيها

"والدتي الغالية".

إلى من كلله الله بالهيبة والوقار..إلى من علمني العطاء بدون انتظار ..إلى من أحمل اسمه بكل افتخار

"والدي العزيز"

إلى العائلة الكريمة خاصة إخوتي كل واحد باسمه

إلى زوجي الغالي

إلى أعز الصديقات: الزهراء ب، حفصة ب، مبروكة ب، جميلة ف. وسيمة ص، كلثوم ب،

كل من أحبني وأحببته.

سمية

إهداء

أهدي ثمرة جهدي:

إلى ملاكي في الحياة ...إلى معنى الحب ومعنى الحنان والتفاني ...إلى بسمة الحياة وسر الوجود إلى من كان دعائها سر نجاحي وحنانها بلسم جراحي إلى أغلى الحبايب ...

أمي الحبيبة.

إلى روح والدي الطاهرة العبقة في عليين مع الشهداء و المرسلين...أرجو من الله أن يتغمد روحه الطاهرة ويسكنه فسيح جنانه، والذي ستبقى كلماته نجوما اهتدي بها اليوم وفي الغد وإلى الأبد ..

إلى القلوب الطاهرة الرقيقة، والنفوس البريئة... إلى رياحين حياتي... إلى من كانوا يضيئون لي الطريق ويساندوني ويتنازلون عن حقوقهم لإرضائي ...

إلى إخوتي كل واحد باسمه وإلى جميع أبنائهم.

إلى الأخوات اللواتي لم تلدهن أمي ..إلى من كانوا معي على طريق النجاح والخير صديقاتي: يسينة ف، فايزة ح، سامية س، سمية ب، الزهراء ب، حفصة ب، مباركة ب، جميلة ف، وسيمة ص، كلثوم ب، سعاد م، مريم ح ع، مريم ب، زينب ي.

إلى جميع زملائي وزميلاتي في الدفعة .

إلى جميع أساتذتي .

عائشة

مقـــــدمـة

مقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

وبعد:

فلا شك أن المجتمع البشري بعاداته وتقاليده يحقق تواصلا مع المجتمعات الأخرى وبطقوسه ينقل أفكار ه، والتي ينقلها الأدباء في إبداعهم، ولذلك اخترنا هذا الموضوع الموسوم "القضايا الاجتماعية في رواية تلك المحبة لحبيب السائح"، هذه الرواية التي اخترقنا من خلالها النسيج الاجتماعي القديم الذي نسجته معايير وقيم الركن الأول من الثالوث الزمني – الأمس – أي المعايير والقيم التي أرسها الأجداد والآ بلو، ولقنوها لأبنائهم لكي تستمر ثقافتهم، والتي وصلتنا عن طريق الرواية وشخصياتها، أي م ع أفراد الأمس الذين عاشوا في ذلك الزمن وتعايشوا مع قضاياه من صراع في طبقاته وعقائده ، وصراع حول الحرية الفردية ، وما حوى من تضامن وتعصب عنصري ، ومفاهيم أخرى مثل العلاقة الأسرية، لكنها قضايا لم تصل إلى حد المشكلة أو الظاهرة.

وقد انطلقنا في بحثنا هذا من إثارة التساؤلات التالية: م ا هي القضايا الاجتماعية التي سادت في منطقة أدرار قديما والتي جسدتها رواية تلك المحبة ؟ وما هي دلالاتها؟.

ونحن فيما عزمنا عليه نريد أن نضع اليد على واحدة من أقطار الجنوب الجزائري والتي احتفظت ببعض مظاهر الحياة القديمة ، إنها أدرار، ولتحقيق شرط الدقة والتحديد في اختيار مجال البحث، قصرنا مجال بحثنا على واحدة من روايات لحبيب السائح "تلك المحبة" والتي وجدناها الأغنى بهذه القضايا، وقد حاولنا في بحثنا هذا طرح أبرز القضايا الاجتماعية التي أشار اليها في الرواية حتى نعرف بها، ونلفت انتباه الناس إليها ليتم التعامل بشكل أفضل مع ما هو باق منها إلى يومنا هذا، مع أمل التوسع فيها في أدبيات علمية متخصصة.

ولعل رغبتنا في اكتشاف خبايا وأسرار وطننا وخاصة جنوبه والكشف عن طبيعة المنطقة كان الدافع الأقوى الذي حملنا على خوض لجة هذا الموضوع وهو موضوع مشدود الأزر بأهداف هي:

1-إثبات أن المجتمع الأدراري غني بالموروث الثقافي الذي يثبت هويته مثله مثل جميع المناطق الأخرى.

2-إيصال هذه الطقوس والمعتقدات والعادات إلى المجتمعات العربية في ثوب أدبي بديع، ونقشها في صدور أطفالنا وعقولهم، علنا نجد موطأ قدم لنا في الحضارة المعاصرة.

وقد اعتمدنا في بحثنا هذا على المنهج الوصفي التحليلي، المناسب لطبيعة الموضوع.

ومن أهم المصادر التي كانت لنا سندا في إعداد هذا البحث، هو مقالات عن الرواية في كتاب أصدرته دار الثقافة لولاية أدرار تحت عنوان "الملتقى الوطني الثالث للكتابة السردية"، بالإضافة إلى مقالتين على الشابكة أحدهما للأستاذ الدكتورحاج أحمد الصديق، الأستاذ المحاضر بقسم اللغة العربية وآدابها بجامعة أدرار، بعنوان العتبات النصية

مقدمة:

في رواية تلك المحبة، والثانية للأستاذة باية شباح، أستاذة محاضرة بقسم علم الاجتماع بجامعة أدرار أيضا، بعنوان محاولة قراءة سيسيولوجية في تلك المحبة.

هذا واعترضت طريقنا ونحن نخوض غمار هذا البحث صعوبات نذكر منها: طبيعة البحث التطبيقي، وصعوبة التعامل مع الرواية نظرا لبنيتها الكلاسيكية الراقية، إضافة إلى كونها تحكي قصصا قديمة لم نكن على دراية بها ومعظمها خرافية على الأغلب،كما لم نتمكن من اعتماد بعض الدراسات لافتقارها لأصول البحث العلمي.

أما عن خطة البحث فقد كان عمادها فصلين، الفصل الأول الموسوم بقراءة في مصطلحات العنوان حوى أربعة مباحث ، المبحث الأول: القضايا الاجتماعية لغة واصطلاحا ، ثم المبحث الثاني : الرواية لغة واصطلاحا ، ثم التعريف بالروائي لحبيب السائح في المبحث الثالث، وأخيرا التعريف بروايته تلك المحبة في آخر مبحث، وقد رأينا أن نسبق بالتعريف بالروائي قبل الرواية، بالرغم من اختلاف الترتيب في عنوان البحث .

أما الفصل الثاني فقد تضمن القضايا الاجتماعية الواردة في الرواية ، والتي سنأتي على ذكرها بهذا الترتيب : قضية المرأة، قضية الدين، قضية العبودية والحرية ، قضية السحر والشعوذة ، الطقوس والرموز الثقافية ، هذه القضايا مرتبة بحسب ترتيبها في الرواية، وأخيرا خاتمة حوت كل ما توصلنا إليه من نتائج.

وفي الأخير نتمنى أن نكون قد وفقنا ولو بالقليل في إيصال بعض المعلومات عن رواية تلك المحبة، وعن الأديب لحبيب السائح، إذ لا يمكن القول أن البحث قد ألم بجميع جوانبها لأن بلوغ الكمال من المحال، فحاولنا قدر الإمكان أن نوفي البحث حقه،كما لا يسعنا إلا أن نتقدم بالشكر والعرفان، وجزيل الامتنان إلى الأستاذة المشرفة سعاد شابي، و لكل من مد لنا يد العون من قريب أو بعيد.

الفصل الأول

قراءة في مصطلحات العنوان

تضمنت رواية تلك المحبة العديد من القضايا الاجتماعية في فترة تاريخية معينة : وقبل أن نلج عباب هذا الموضوع، آثرنا أن نقف وقفت ممحصة على كل محدد من محددات العنوان كل على حدا ؛ فمعرفة الجزئيات تحيلنا إلى فهم المعنى العام والكلي للموضوع ، يتعلق الأمر هاهنا بالموضوع الذي اخترناه للدراسة ووسمناه ب"القضايا الاجتماعية في رواية تلك المحبة لمحبيب السائح ".

أولا : القضايا الاجتماعية

القضايا: «القضية مصدر وإسم من قضى ، وعند المنطقيين ، قول يصح أن يقال لقائله أنه صادق أو كاذب فيه».[1]

كما عرفها أيضا إبراهيم أنيس في المعجم الوسيط بأنها:حكم ومسائل ، يتنازع فيها وتعرض على القاضي أو القضاة للبحث والفصل.

وفي المنطق، قول مكون من موضوع ومحمول ، يحتمل الصدق أو الكذب لذاته ، ويصح أن يكون موضوعا للبرهنة وجمعها قضايا.[2]

وعرفها ابن منظور في لسان العرب المحيط بأنها:« الأحكام، واحدتها قضية».[3]

أما في القرآن الكريم فقد ورد معناها مخالفا للأحكام ، وذلك في قوله تعالى :(**وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**).[4]

أي أنه جل شأنه، أمر بعبادته وحده لا شريك له، فالقضاء هاهنا، معناه الأمر، قال مجاهد: "وقضى"، يعني "وصى"، وكذا قرأ أبي كعب، وابن مسعود، والضحاك بن مزاحم: "ووصى ربك ألا تعبدوا إلا إياه" ولهذا قرن بعبادته بر الوالدين فقال: وبالوالدين إحسانا، أي وأمر بالوالدين إحسانا.[5]

فالقضايا إذن، قد تأتي بمعاني مختلفة، فهي تارة تعني الأحكام، وأخرى مسائل، وتارة ثالثة تأتي بمعنى الأمر، أي أن معناها يختلف حسب السياق الذي ترد فيه ، وهي هنا –أي حسب موقعها في العنوان– تعني مواقف وحالات في المجتمع.

الاجتماعية:« من اجتماعي وهو نسبة إلى الاجتماع، والاجتماع من اجتمع، وجمع الشيء: أجمعه فاجتمع.

---

[1] محيط المحيط: بطرس البستاني، مكتبة لبنان ناشرون، 1998م، ص 734.

[2] ينظر معجم الوسيط: إبراهيم أنيس وآخرون، دار العودة،ص 743

[3] لسان العرب المحيط: ابن منظور، دار الجيل بيروت ، (د، ط) ، 1408 هـ، 111/5.

[4] سورة الإسراء: الآية 23.

[5] ينظر تفسير القرآن العظيم: ابن القرشي الدمشقي ، دار الطباعة للنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1408 هـ/1998م، 35/3.

والجمعُ اسم لجماعة الناس، والمُجتمَع: اسم للناس وللموضع الذي يجتمعون فيه».[1]

وجاء في معجم المحيط في اللغة في مادة "جَمَعَ"، الجَمعُ: المجتمعون، والجُمَّاعُ: المثقفون، وقيل جُمَّاعُ الناس: أخلاطهم. والجُموعُ: اسم لجماعة الناس، والجَمعُ اسم للناس وللموضع، وجماع الشيء، وجميعه: واحد، ورجل جَميعٌ: مجتمع في خلقه، والمجتمعُ الذي بلغ غاية شبابه.[2] أما في معجم مقاييس اللغة فقد ورد في مادة جَمَعَ: الجيم والميم والعين أصل واحد، يدل على تضام الشيء، يقال جمعت الشيء جَمعاً، وجماع: الأشابة من قبائل شتى.[3] وعليه فالاجتماعية، من اجتمع المنسوبة إلى الوحدة ضد التفرق .

القضايا الاجتماعية اصطلاحا:

«مواقف اجتماعية تواجه المجتمع ، أو أحد أجهزته ، أو جماعته ، وتحتاج إلى المزيد من الدراسة لتحديدها أو تفسيرها، واقتراح الحلول العملية المناسبة التي يسهل الاتفاق عليها من المعنيين ، وبذلك يمكن أن تتحول المسائل والقضايا الاجتماعية إلى حاجات اجتماعية لها أهميتها ، وضرورة إيجاد حلول مناسبة لها لمنع تحولها إلى مشكلات اجتماعية».[4]

«كما يمكن تحديد مفهوم القضية الاجتماعية على أنها لا تمثل مشكلة اجتماعية خاصة بفئة اجتماعية معينة ، ولا حتى طبقة اجتماعية ؛ بل لم تصل إلى صيغة الظاهرة الاجتماعية ، لأنها لم تعد سائدة في المجتمعات الإنسانية كافة، إنما هي حالة اجتماعية جديدة ، برزت على أسطح المجتمع المتقدم ، فأحدثت تغييرا سلوكيا ومعياريا في بعض الأحيان، وفكريا في أحيان أخرى ، أفادت البعض، وأضرت البعض الآخر ؛ أي تمتلك أسباب في حدوثها ، يمكن حصرها بتطور الفكر الإنساني المعاصر الذي حقق نجاحات عديدة على المستوى التكنولوجي ، مما دفعه بشكل مستمر إلى استخدام انجازاته في تغيير العديد من أوضاعه المعاشة ، ومعالجة بعض المشكلات التي يعاني منها منذ عقود زمنية مضت، أو معالجة ما أفسد في الطبيعة».[5]

---

[1] لسان اللسان: ابن منظور، دار الكتاب اللبناني، بيروت لبنان، ط1، 1/203.

[2] ينظر المحيط في اللغة: كافي الكفاة الصاحب إسماعيل بن عباد: تح الشيخ محمد حسين آل ياسين، عالم الكتب، ط1 1414 هـ/1994 م، ص270.

[3] ينظر مقاييس اللغة: أبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، تح عبد السلام محمد هارون: دار الجيل بيروت، ط1، 1411 هـ، 1/134.

[4] معجم مصطلحات الخدمة الاجتماعية والعلوم الاجتماعية: عبد العزيز عبد الله الدخيل، دار المناهج للنشر والتوزيع، ط1 1426 هـ/ 2006 م، ص 192.

[5] قضايا اجتماعية معاصرة: معن خليل العمر، دار الكتاب الجامعي العين، ص 14.

فالقضايا الاجتماعية، مسائل تخص الجماعة من الناس، يشتركون فيها سلبها وإيجابها، مثل العلاقات الاجتماعية والبناء الاجتماعي، أي هي الأحداث المنتشرة بصفة عامة في المجتمع الواحد .

ثانيا الرواية:

لغة: جاء في كتاب الصحاح للجوهري أن الرواية: التفكير في الأمر يقال: من أين ريتكم بالماء، أي من أين ترون الماء، ورويت الحديث والشعر رواية فأنا راو، وتقول أنشد القصيدة يا هذا ولا تقول أروها إلا أن تأمره بروايتها أي استظهارها.[1]

وهي نقل الأخبار والأشعار شفاها من غير كتابة ؛ وكان الجاهليون يعتمدون الرواية الشفوية في نقل الآثار الأدبية لأنهم كانوا قوما أميين، لا يعرف الكتابة والقراءة إلا عدد قليل منهم.[2]

فهي إذن التفكير في الأمر، ونقل الماء، ونقل النص عن قائله الأصلي، ونقل الخبر، وإذا كانت هذه المعاني متعددة ومختلفة، فإنه بينها أمر مشترك، هو أن الرواية في معناها اللغوي هي النقل المادي والمعنوي.

اصطلاحا: «إن الرواية بتعدد أنواعها، واتساع أغراضها، واختلاف أساليبها، وتدرج مستوياتها، وتنوع مصادرها، وسرعة تطورها، ورحابة مجالها، وتمردها على القوالب، واستيعابها لكثير من عناصر الفنون، وانتشارها في كل الآداب المعاصرة، كل ذلك جعل الوصول إلى تعريف دقيق واحد وجامع في آن واحد أمرا صعبا ، أما التعريفات التي سجلها تاريخ الأدب فمن نوعين: تعريفات عامة كافية لتمييز الرواية بين الفنون الأدبية ولكنها قاصرة عن رسم الحدود التي تغرق الرواية في سائر الأنواع السردية ، وتعريفات خاصة تقدم مفهوما للرواية يتناسب مع مذهب أدبي بعينه».[3]

«الرواية في الأدب سرد نثري خيالي طويل، عادة تجتمع فيه عناصر عدة في وقت واحد مع اختلافها في الأهمية النسبية باختلاف نوع الرواية، وهذه العناصر: هي الحدث، وهو الذي تزداد أهميته في روايات المغامرات، والتحليل النفسي، وتصوير المجتمع، وتصوير العالم الخارجي، والأفكار والعنصر الشاعري»[4].

---

[1] ينظر الصحاح في اللغة وصحاح العربية: إسماعيل بن حماد الجوهري، تح أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، القاهرة، ط1 1376 هـ، 2279/1.

[2] ينظر المعجم المفصل في الأدب: محمد التونجي، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط2 1419 هـ- 1999 م، ص 490 .

[3] معجم مصطلحات نقد الرواية، عربي- انجليزي- فرنسي: لطيف زيتوني، مكتبة لبنان ناشرون ، دار البهاء للنشر، ص 98.

[4] معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب: مجدي وهبة وكامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984 م، ص 183.

تقدم الروايات قصصا شائعة تساعد القارئ في معظمها على التفكير في القضايا الأخلاقية ، والاجتماعية والفلسفية، كما يحث بعضها على الإصلاح، ويهتم بعضها الأخر بتقديم معلومات عن موضوعات غير مألوفة ، وتكشف جوهر المألوف ، ومن الروايات ما يكون يعطي الموضوعات التي تناولتها الروايات حيزي التجارب الإنسانية والخيال، فبعض الروايات تصور أشخاصا وحوادث من واقع الحياة ، وكتاب هذه الروايات الواقعية يسعون لتصوير الحياة كما هي، على حين أن الرواية النفسية تركز على أفكار واحد أو أكثر من شخصياتها ، وعلى عكس الرواية الواقعية، فإن الرواية الرومانسية تقدم صورا مثالية للحياة ،كما تستكشف بعض الروايات عالما خياليا مثل قصص الخيال العلمي ، التي تصف أحداثا مستقلة ، أو كواكب أخرى ، منها الرواية البوليسية التي تعد أشهر أنواع الروايات حاليا.

والرواية باعتبارها شكلا أدبيا، أربع سمات أساسية تميزها عن باقي الأنماط الأدبية الأخرى وهي:

1- شكل أدبي سردي يحكيه راو ، وبهذا تختلف عن المسرحية التي تحكي قصتها من خلال أقوال وأفعال شخصياتها.

2- أطول من القصة القصيرة وتعطي فترة زمنية أطول وتضم عددا من الشخصيات أكثر

3- تكتب في لغة نثرية .

4- عمل قوامه الخيال ، وبذلك تختلف عن التاريخ والسيرة الذاتية الذين يحكيان على إحداث وشخصيات حقيقية .

وقد يبنى بعض الروائيين أعمالهم على أحداث أو حياة لأشخاص حقيقيين ، لكن إبداعهم يكمن في إيراد أحداث أو شخصيات لا تمت إلى الحقيقة بصلة، لذا فالرواية جزئيا، إن لم يكن كليا من نسيج خيال المؤلف [1].

أما معجم المصطلحات الأدبية لفتحي إبراهيم، فقد جاء فيه أن: «الرواية سرد قصصي نثري، يصور شخصيات فردية من خلال سلسلة من الأفعال والمشاهد ، والرواية شكل أدبي جديد لمعرفه العصور الكلاسيكية والوسطى ، نشأ مع البواكير الأولى لظهور الطبقة البرجوازية، وما صاحبها من تحور من ربقة التبعات الشخصية».[2]

وهي القصة الطويلة المكتوبة نثرا ، والتي بدء بالكتابة بها منذ بد اية القرن السادس عشر في انكلترا ، أما الرواية الحديثة فيرجع تاريخها إلى القرن الثامن عشر ، ولذلك يمكن اعتبار "ألف ليلة وليلة " من جملة الروايات العربية

---

[1] ينظر الموسوعة العربية العالمية: أول وأضخم عمل من نوعه ومنهجه في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية عمل موسوعي ضخم اعتمد في بعض أجزائه على النسخة الدولية من دائرة، worod book iternatinal ، شارك في انجازه أكثر من ألف عالم ومؤلف ومترجم ومحرر ومراجع علمي ولغوي ومخرج فني ومستشار ومؤسسة في جميع البلاد العربية 1/1.

[2] معجم المصطلحات الأدبية: فتحي إبراهيم ، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، الجمهورية التونسية ط 1988 م 176/1.

القديمة "ورحلة الحاج" عام 1678م لجون بنيان و"رحلات جليفر" عام 1726م لجوناثان سويفت من الروايات الغربية القديمة ، وعدوا " انتصار الفضيلة " عام 1740م لصامؤيل ريتشارديسون أول رواية في الأدب الغربي الحديث، وهي رواية غرامية كتبت على شكل رسائل ، وكذلك رواية "بول فيرجيني" الفرنسية التي كتبها برناردين دي سانتير وترجمها مصطفى لطفي المنفلوطي ، ورواية "آلام فرتر" لغوتيه الألماني . وأول رواية عربية هي "زينب" عام 1941م لمحمد حسين هيكل ، ثم يجيء بعده محمود تيمور وأخوه أحمد تيمور وكذلك طه حسين في " الحب الضائع" و"دعاء الكروان" و "شجرة البؤس"، ومن رواد القصة العربية عباس محمود العقاد والمازني ، ويحي حقي ، ونجيب محفوظ، ويوسف السباعي ، وحنا مينا، وقد اتخذ كل أديب نزعة أدبية من النزاعات الوافدة ، وللرواية أنواع منها الرواية البوليسية، والتاريخية، والسياسية، والعاطفية والنفسية.[1]

الرواية جنس أدبي محدد يشمل أقسام متعددة ، يسميها عبد المالك مرتاض ألوانا في حين يطلق على الرواية جنسا على اعتبار أن لفظة "جنس" أعم وأشمل من "النوع" ، وتختلف عن القصة، والقصة القصيرة، في عدة مميزات منها: اتساع الرواية في أحداثها وشخصيتها ، إذ أنها تشغل حيزا أكبر وزمنا أطول ، وتعدد مضامينها، ولا تتميز الرواية بكبر حجمها فحسب، بل تميزها جملة من الأمور كشف عنها الدريه جيد في بداية القرن العشرين ، كما أن رامون "فيرديناندير"قد أعطى جملة من الفروق بين القصة والرواية أهمها:

-أن الحديث في القصة جرى في الزمن الماضي ، أما الرواية فيجري في الزمن الحاضر.

-الأحداث تسرد في القصة وفقا لمخطط سببي ، وزمني ، وتفسيري ، أما الرواية فتركز على الشعور بكثافة الأحداث.

أن الماضي في الشخصية الروائية ليس إلا ذكرى ، ومستقبلها مبهم، وتتميز بغزارة المعلومات والذكريات الكثيرة بخلاف القصة القصيرة ، التي قد تختصر جملة من الأحداث في عبارة واحدة .

كما تختلف الرواية عن القصة فهي تختلف عن القصة القصيرة التي تقول عزيزة مريدن في تعريفها أنها قصة تصور جانبا من الحياة الواقعية يحلل فيها الكاتب حادثة معينة أو شخصية ما ، أو ظاهرة من الظواهر ، أو بطولة من البطولات بلا تفصيل .[2]

والرواية: لم تحقق استقلاليتها ، وتتميز بوجودها وبشكلها الخاص في الأدبين الغربي والعربي إلا في العصر الحديث، حيث ارتبط مصطلح الرواية بظهور وسيطرة الطبقة الوسطى في المجتمع الأوروبي في القرن السادس عشر ،

---

[1] ينظر المعجم المفصل في الأدب: محمد التونجي، ص491.

[2] ينظر المرأة في الرواية الجزائرية: مفقودة صالح، جامعة محمد خيضر، بسكرة الجزائر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم الأدب العربي، ط 3، 2003م، ص 36.

فحلت هذه الطبقة محل الإقطاع الذي كان أفراده يتميزون بالمحافظة والمثالية والعجائبية ، وعلى العكس من ذلك فقد اهتمت الطبقة البرجوازية بالواقع والمغامرات الفردية ؛ وصور الأدب هذه الأمور المستحدثة ، واصطلح الأدباء على تسمية هذا الجنس بالرواية الفنية ، في حين أطلقوا اسم الرواية غير الفنية على المراحل السابقة لهذا العصر حيث يتميز الأدب القصصي منذ القديم بسيطرة أدب الطبقة الحاكمة ؛ فبدأت في أوروبا منذ القرن الثامن عشر حاملة رسالة جديدة ، هي التعبير عن روح العصر الحديث ، وعن خصائص الإنسان، فالرواية وليدة الطبقة البرجوازية وهي البديل عن الملحمة ولذلك اعتبر هيكل الرواية ملحمة العصر الحديث.[1]

وعليه فالرواية وان تقاطعت في مفهومها اللغوي والاصطلاحي مع مفاهيم أخرى وأنواع أدبية شبيهة بها كالقصة، والقصة القصيرة، إلا أن لها مميزات تفصلها عن جميع مثيلاتها ؛ فتجعلها نص سردي مختلف قائم بذاته ، يحمل الخصائص الفنية والجمالية الدالة على استقلاله.

[1] ينظر المرجع السابق ؛ ص 36.

ثالثا: ترجمة الروائي

«لحبيب السائح روائي جزائري ولد في لالة حسنة بالقرب من معسكر ، بتاريخ 24 أفريل 1950، ترعرع في مدينة سعيدة، خريج جامعة وهران، معهد اللغة العربية والأدب العربي 1980م دراسات ما بعد التخرج ».[1]

غادر الجزائر سنة 1994م متجها نحو تونس ، حيث أقام بها نصف سنة ، قبل أن يشد الرحال نحو المغرب الأقصى، ثم عاد بعد ذلك إلى الجزائر ليتفرغ منذ سنوات للإبداع الأدبي قصة ورواية ، تحصل على الجائزة الوطنية للرواية الجزائرية سنة 2003 م، عاش سنوات عديدة منتقلا بين سعيدة وأدرار رافضا الجامعة و المدنية ...يقول:" إن كان هناك شيء ثمين علمتني الصحراء إياه فهو الصبر، ولعلني منه أدركت أن الكتابة نفحة من عالم النبوة ، فهي من خفايا القوة الغيبية التي يتمتع بها صفوة من البشر ، وتحريك تلك القوة لتصير عامل إنشاء لا يتم بضغط زر؛ إذ ليس للكتابة بهذا المعنى أزرار ؛ والكتابة ليست نزوة ، إنها فعل مشق ومفن.[2] أهم أعماله المنشورة : الفرار، مجموعة قصصية، اتحاد العرب ، سوريا 1979م، (م، و، ك) الجزائر 1985م: الصعود نحو الأسفل ، مجموعة قصصية ط1، 1981م: ط2 الجزائر (م: و، ك) 1986م: البهية تتزين لجلادها، مجموعة قصصية، اتحاد العرب، ط1، سوريا 2000م: الموت بالتقسيط، قصص، اتحاد الكتاب الجزائريين ، الجزائر 2003م زمن النمرود، رواية (م، و ، ك) ، الجزائر ،1985م: ذاك الحنين ، رواية، دار القصبة ، الجزائر ، 2002م: رواية تلك المحبة، منشورات 2002م، وترجمت بعض أعماله إلى اللغة الفرنسية ،كما ترجم هو نفسه إلى العربية أعمال الآخرين منها: رواية "شرف القبيلة " رشيد ميموني ويترجم حاليا كتاب الكاتبة " بتول لا مبيوت" الصادر عن دار نوساي باريس ودار القصبة 2007م.[3]

يؤمن حبيب أن الكتابة فعل فردي ذاتي للذات أولا ، من الذات نحو الموضوع ، من الداخل إلى الخارج، من الجواني إلى البراني ، تنشئ نصها بلغة تعلو البسيط وتفوق المتداول ، تنسج في كبرياء مع الشعري ، تتداخل مع النبوئي والكنهوتي والصوفي ، وتبنيه وتؤثثه في قطيعة مع سائد السردي النمطي المطمئن المهدهد الراسم افقه منذ البدء"، ويقول عما حصل له مع روايته زمن النمرود:"لا أحب أن أجعل مما حدث لي ، من متاعب ومضايقات و واستفزازات وصلت لحد التهديد بالقتل بسبب جرأة " زمن النمرود" على خرق الصمت على المحظور سياسيا وأخلاقيا ولغويا، مطية ابتزاز أقيم بها مجدا ، لابسا لذلك قناعا الضحية لأحصل على شهادة عضوية الكاتب

---

[1] موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين: تأليف مجموعة من الأساتذة، دار الحضارة ، ط2003 م ، ص49

[2] ينظر الكتاب الجزائريون، قاموس بيبوغرافي: عاشور شرفي، تعريب مصطفى ماضي، دار القصبة للنشر، الجزائر، ط 2003م، ص179 .

[3] ينظر المرجع نفسه، ص 180.

المقموع: أريد لنصي أن يكون مخطوطا ؛ متنا لا هامشا أو حاشية، وأسعى إلى أن تكون لغة كتاباتي مؤسسة قائمة بذاتها". "توافقني حين أقول لك إن سر من أسرار خمود النصوص هو لغتها ، تصور أنك تقرأ لهوميروس أو شكسبير أو الخيام أو ماركيز في لغاتهم الأصلية ؛ اقرأ الفتوحات المكية وستدهش ؛ ما قرأت في حياتي نصا بلغة ذات قدرة ارتباحية جبارة مثلما قرأت لابن عربي، مراهنتي على اللغة؛ مستوياتها، وقاموس، وتركيب، وبنية، ودلالة، وإيقاع في تشكيل نصي لأن أبلغ به درجة عليا من النظم هو ما يشغلني لحظة الكتابة".

وعن عدم مقروئية الرواية في الجزائر وعالمنا العربي يقول حبيب:" كتابات روائية وشعرية كثيرة عبر التاريخ لم تقرأ إلا عن مسافة زمنية كبيرة ، لأنها كانت متقدمة عن شروط إنتاج المجتمع آنذاك ، آليات لغة قراءته ، ولكن قل لي أنت ما الذي ينتجه مجتمعاتنا العربية من وفرة فتنزله إلى أسواقها وبمراكزاتها ليكون لنا نص سوق؟ لا أقصد السوقي القراءة صناعة قائمة بذاتها مثل الصناعات كلها "، عن كمال الرياحي مجلة عمان الأردنية تقول عنه الناقدة آمنة بلعلي .....:"رواية ذاك الحنين التي فرضت نفسها بتشكيلها اللغوي ليس بالنسبة للمؤلف حبيب السائح فقط ، ولكن باعتبارها طفرة مميزة في الرواية الجزائرية".

أما محمد تحريشي فيقول:"إن ذاك الحنين تجربة سردية مارسها حبيب السائح بحب وألم وعنف ، وهو صعب المراس يتحدى القارئ ويهاجمه منذ العنوان بلغة سردية كونت لنفسها جمالية خاصة لا تلين ولا تقدم نفسها في سهولة ويسر .[1]

إن الروائي حبيب السائح ذو إنتاج غزير أغنى المكتبات الجزائرية خصوصا والعربية عموما يستمد لحظته الإبداعية من واقعه المعاش كتب عن الصحراء وخاصة عن أدرار تطوان إقامته بها وهذا هو سر محبته لها التي عبر عنها في تلك المحبة، تميزت كتاباته بلغة مختلفة طبعت أسلوبه على وجه التحديد مما أتاح لتجربته الروائية أن تعرض نفسها بقوة في الفضاء الأدبي والنقدي الجزائري، فهو روائي يستدعي نوع خاص من القراء .

[1] ينظر المرجع السابق : ص 180.

رابعا: تلك المحبة

قبل الحديث عن مضمون تلك المحبة آثرنا التعريف أولا برواية تلك المحبة بدءا من الغلاف الخارجي.

تصميم الغلاف: يعبر عن صورة واقعية بعيدة عن الانطباعي والتجريدي لكونهما يفتحان مجالات متعددة عن التخيل والتأويل. فالغلاف يحمل صورة المرأة التارقية ، ووضعها في الجانب الأعلى من الغلاف دلالة على مكانة المرأة في المجتمع التارقي و إن كانت تمثل جزءا بسيطا من المجتمع الأدراري ، كما أنها حديثة العهد بأدرار إذ يرجع أول وجود لها إلى بداية الثمانينات من القرن الماضي ، مع انتشار المجاعة في مالي ، وما يزيد الاعتقاد بتارقية الصورة هو ذلك اللون الأزرق المكثف / وهو رمز من رموز التوارق ، والسبب في وضعه لصورة المرأة التارقية دون غيرها ، يعود إما لإعجابه بها أو لجمالها الفاتن وهذا أمر لا مشاحنة فيه ، كما أن تكثيف اللون الداكن ومحاولة طمسه لتجليات صورة المرأة الأدرارية التي تظهر خلف ضباب أبيض ، وكذا أسنانها البيضاء ؛ قد يفهم منه مدى صعوبة فهم المرأة الأدرارية ، ويمثل هذا الضباب الأبيض ، وصورة عرق الرمل الأصفر الذهبي الممتد على عرض الغلاف الذي يوحي للقارئ أن الرمل بنعومته وصفائه ، جزء من تلك المحبة ، أما صورة المخطوط التراثي فترجع إلى الخلفية العلمية والدينية والصوفية للمنطقة ، وقد نصص الكاتب عليه باسم المصنف في المتن ، وهذا أيضا جزءا من تلك المحبة التي وهبها لحبيب السائح لمدينة أدرار ، ومن سيميائية وجه الغلاف اسم الكاتب لحبيب السائح الذي وضع أعلى الغلاف ، وكذلك العنوان "تلك المحبة" الذي كتب بخط غميظ وبارز ، بخط الثلث مع استرسال وسباحة لحروفه، ترمز لانبساط الكاتب ومحبته لأدرار وأهلها ، وقد لون العنوان "تلك المحبة" باللون الأصفر الرامز لاصفرار رمال أدرار الذهبية، وتحته لتجهة اليسرى وضع تخصيص الكاتب ليشير لجنس الرواية ، وقد كان ذلك بخط نسخي أقل بكثير من حجم خط عنوان الكاتب، وفي نهاية منتصف الغلاف وبخط أزرق وضع رمز واسم دار النشر. [1]

[1] ينظر العتبات النصية في رواية تلك المحبة الدكتور حاج أحمد الصديق، جامعة أدرار، نقلا عن الموقع الإلكتروني: http//ar-ar-faebook.com/pages/230751689481 79 تاريخ الدخول للموقع :25 01 2015

هذا بالنسبة لوجه الغلاف ، أما ظهره ففيه نصوص موازية أخرى ، وقد يعول عليها في تذليل الصعوبات أمام القارئ لولوجه عالم النص ، فالنص الموازي الأول هو وضع ترجمة مضغوطة تعرف بالكاتب ، ولم تتجاوز ثلاثة أسطر، أما النص الموازي الثاني الذي جاء على ظهر الغلاف ، فهو كلمة دار النشر وقد وضعت كتوطئة للنص مع توظيف عامل التلخيص والمنهج والإغراء والتحبيب قصد جر القارئ لقراءة النص ، أما اللون الذي وشح به ظهر الغلاف فهو اللون البني وفي ذلك دلالة رمزية للون البنايات الطينية والطوبية لقصور وقصبات أدرار .[1]

قراءة في دلالات العنوان: لا يمكن للدارس أن يتفهم دلالة عنوان تلك المحبة إلا بالرجوع للنص السابق الذي صدر قبله والموسوم ب"ذاك الحنين" ، ففي النصوص الموازية لذاك الحنين ولاسيما في الخطاب المقدماتي لهذا النص ، يصادفنا ما يشبه الإهداء، حيث عمد الروائي إلى التنصيص بقوله: "حنينا ومحبة" وهو بهذا يبشر بقرب ميلاد تلك المحبة.كما أن الارتباط في الدلالة النحوية واللفظية هو الآخر مرتبط بذاك الحنين ، حيث أنتج العنوان هديا بذاك الحنين، فالتوظيف الإشاري باسم الإشارة المرتبط باسم المشار إليه وان من الاختلاف فهو من جهة التذكير والتأنيث بين اسمي الإشارة "ذاك" و"تلك"، وبين "الحنين" و"المحبة"، وكلاهما أمران معنويان قبليان نفسيان ، ارتبط أحدهما بمدينة سعيدة وحنين الروائي إليها، والثاني بمدينة أدرار ومحبته لها ، فالعنوان الذي جاء في شكل جملة اسمية يوحي إلى دلالة مكثفة ومختزلة للنص، لكن هذه المحبة تظل مبهمة وغامضة عند القارئ أهي المحبة بالمفهوم الصوفي والتي تعني الحب الإلهي والفناء فيه؟ ، أم هي محبة العاشق للمعشوق؟ ، غير أن هذا الخيال والتحير يزول عند ملاحظته للغلاف ، فيدرك أن المحبة المقصودة من الكاتب والتي هي في متن الكتاب ، هي لرمال أدرار وقصورها ونخيلها وزواياها الصوفية ، ولجمالها نسوتها ، ومن هنا نستنتج أن الصورة الموضوعية على وجه الغلاف ، كان أمرا مقصودا من الكاتب لتقريب القارئ من النص وانفتاحه عليه.

قراءة في النصوص الموازية الافتتاحية للرواية:

أول نص مصاحب يقابلنا لنص المتن هو العنوان المزيف، فهو في ترديد وتأكيد وتعزيز للعنوان الحقيقي، ثاني نص مصاحب يأتي بعد هذا وصفه لأعمال الكاتب القصصية والروائية والمترجمة ، موصوفة بتاريخ نشرها ودور نشرها لوضع الثقة من لدن الكاتب في القارئ.[2]

ثالث نص مصاحب يأتي بعد هذا ، صفحة تشبه الإهداء كتب في أعلاها "وفاء" ووضع بعد هذا نقطتين مقصودتين لتبئير التخيل لدى المتلقي، أهو هذا الوفاء من الكاتب لأدرار ، أم لغيرها لتترك مساحة كبيرة، ويأتي

---

[1] ينظر المرجع السابق:http//ar-ar-faebook.com/pages/230751689481790 .

[2] ينظر المرجع نفسه: http//ar-ar-faebook.com/pages/230751689481790 .

الكاتب في نهاية الصفحة ليحير القارئ من أن هذا الوفاء المعلن منه هو لتلك المحبة ، ولأدرار ولغيرها ، رابع نص مصاحب، هو بيتان للخيام استشهد بهما الكاتب في روايته ومطلعها:

يا قلب كم تشقى بهذا الوجود وكل يوم لكل فيه هم جديد

والظاهر أن الكاتب يريد أن يضع النص ضمن المقاربة الفلسفية الوجودية ، وبالتالي وضع القارئ أمام طلاسم فلسفية لا يفهم مقصدها إلا من خلال العبور إلى النص، خامس نص مصاحب هو نص مقتبس لأبي حيان التوحيدي يقول فيه ما نصه:" إياك أن تعاف سماع هذه الأشياء ...". والواضح أن الغرض من هذا النص هو تحذير القارئ من أن يعاف النص قبل قراءته ، لأن فيه شيء من المحظور ، سادس نص مصاحب وهو العناوين الفرعية وقد بلغت اثنا عشرة عنوان ترتبط ارتباطا وثيقا مع العنوان الرئيس ، كما أنها خادمة له في انفتاح القارئ على النص.[1]

«هذه الرواية نص جديد جدا في نمسته وفي شكله ومقاربته الفنية وفي سرديته التي تمازج بين الموروث وبين الحداثي لغة ونظما ، بنفس يلامس الصوفي ويتداخل مع الغرائبي بما وفر له من إمكانات الكتابة التي تجعله رواية مختلفة، ومما بذل فيه من جهد إبداعي من أجل أن تقرأ بشكل جمالي ، صورة أخرى عن جزائر أخرى ؛ قابعة في التاريخ المنسي والعمق والمجهول ، هناك من خلال صحرائها وعن غزوها صحراء أدرار خاصة وقصورها وفقارائها وغيلها في فوارة ونيديكت ونوات التي عرفت مدينتها القديمة تمنطيط هجرات إليها من اليهود والمسيحيين والمسلمين جاءوا من فلسطين والمشرق والأندلس والمغرب ، وعن حرب المغيلي ضد اليهود ، وعن تبشير الآباء البيض والتنصير ،على رأسهم الأب الضابط دو فوكو ، وعن التجارب النووية في رقان صحراء مملكة السر والفداء والنار حيث تجليات الخالق التي تزهر تلك المحبة »[2].

ولدت تلك المحبة لصاحبها لحبيب السائح بعد روايته تماسخت وكان قد أشار إلى ذلك عند زيارته لأدرار ، وقد تحدى الأدرارين بعبارته:"ستفاجئكم تلك المحبة بمحتواها وستتعرفون على أدرار من مداخل أخرى ستقر ؤون عن أشياء أنتم أهل أدرار لا تعرفونها ؛ عباراتها ذات مادة خام صادمة في جرأتها الرائعة الدلالة ؛ هي نص يجرك على البحث في أكثر من كتاب لفهم خطاباته ، رواية تحيلك على كتب التاريخ والجغرافيا ، ومسيرة التبشير بالصحراء كمرحلة ثانية للاستعمار المخطط ، وتغوص بك في الزمن لتتعرف على المبادلات التجارية مع دول الساحل ومن بينها جلب العبيد وتوظيفهم في الحياة اليومية والاجتماعية والمادية ، كما تدفعك إلى استقراء الذاكرة

---

[1] ينظر العتبات النصية في رواية تلك المحبة: حاج أحمد الصديق – http//ar-ar . faebook.com/pages/230751689481 79

[2] من غلاف رواية تلك المحبة: لحبيب السائح منشورات قسنطينة الجزائر ، ط 2013م.

الشعبية وذاكرة من سبقوك وتعرض لك حكايات الجدات الشعبية ، والأحداث المتواترة شفويا ، ومنها قصة صلاة اليهودي الجنب كإمام لحين من الزمن ؛ التي وظفها الروائي كشاهد على الحياة الاجتماعية اليومية في فترة تاريخية من يوميات تمنطبط ؛ ولم يلتزم الكاتب بسياق خطي يسحب عليه الأحداث ، فهو حينا يذهب بك أماما للمستقبل، وحينا يعيدك إلى أغوار التاريخ وأحيانا أخرى يقدم لك سياقا مطلقا ؛ فالبعد الزمني للرواية يصعب تحديده والقبض عليه داخل تلك المحبة، ففي الصفحة 13 تتحدث أدرار عن ميلادها منذ بدء التكوين مع الدفقة الأولى للحياة بإشارة للحمامة حمامة نوح، وفي الصفحة 14 يبدو هذا الزمن المتخيل دون تقويم محدد ؛ ما استطعنا أن نتلمسه كبداية للأحد الحدود هو الإشارة إلى سقوط غرناطة أي القرن الخامس عشر الميلادي في الصفحة 28، وإلى نزوح المسلمين واليهود ومحاكم التفتيش ، إضافة إلى حدود أخرى ؛ وفي الصفحة 30 يسحب على الزمن الأحداث والمواقف ؛ كقضية إجلاء اليهود المثارة بين الشيخ المغيلي والقاضي العصنوني ، وإرساليات التبشير، ودور الأب دوفوكو في الصحراء ، ودخول الاستعمار ؛ وإشكالية المقاومة من عدمها ، وتفجيرات رقان ؛ غير أن الزمن يتواصل سحبه على الأحداث إلى غاية يوم الناس بالتطرق إلى زمن الفساد الذي طال محاولات الإصلاح السياسية والاجتماعية والتنموية .[1]

مضمون الرواية: الراوي في الرواية هو شخصية إسماعيل الدرويش — إن كان هذا الزعم صحيحا- لأن قصة الرواية تاريخية واقعية ، وهو الشخصية الأساسية في تلك المحبة إلى جانب شخصية البتول والسيدة النبيلة ، تلك السيدة الباهرة الجمال الفاتنة؛ التي فتن بها وعشقها كل رجال العصر المسهم وجنه م، ومنهم الدرويش الذي كتب عنها في مصنفه؛ ومهما حاول أو اجتهد في وصف جمالها فلن يستطيع ذلك ؛ فالرواية تصف المنطقة في فترة غابرة من الزمن، إذ ركز الروائي على ما سكن فيها من جن وعفاريت ، وما عرف فيها من سحر وشعوذة و قد ركز على الحب والبغض والفوارق الطبقية ، وعن خوف السكان من أهل السر والتسليم لهم ، عن الخرافات التي يؤمن بها الأهالي ويعتقدون بها في طقوسهم ؛ وعن كل ما هو ممنوع ومحظور اعترف به المذنبون في آخر الرواية ، فالرواية بواسطة الدرويش تفرض لنا التواصل والتقاطع بين عالم الإنس وعالم الجن ، عالم تلك السيدة النبيلة التي اختطفته والتي عشقها؛ فوصف جمالها بكل أوصاف الواصفين للجمال ، وخلده في مصنفه وكان ذلك بطلب منها ، بل

[1] ينظر محاولة قراءة سيسيولوجية في تلك المحبة للروائي الحبيب السائح ، باية شياخ ، جامعة أدرار، الثلاثاء 8 يناير 2013م 10:40، نقلا عن الموقع الإلكتروني: djazainewns-info/trace/49772-2013-1-8-9-38tntm تاريخ الدخول للموقع 23 12 2014م.

شرطا ليسترد حريته المغتصبة لمدة سنة من الزمان ، وهو وإن حاول في مصنفه وصفها إلا أنه لم يفلح فقد فاق جمالها كل وصف، فشكل عالم الجان بنية جمالية داخل النص الروائي.

«كان الروائي لحبيب السائح قد أصدر رواية " تلك المحبة " عام 2002 فأعنن في الفصل الثاني يقول: "كان له حفيد عاد إليه غرة بين العام الذي غابت فيه الشمس في يوم من أيام الشهر الثاني من التقويم النصراني بما أحدثته غمامة عظمى انفجرت نارها من قلب رقان ، وبين العام الذي عصف فيه الرمل بآخر من لوثوة فحطمهم في البحر من حيث نزلو "،[1] وفي الفصل الرابع عشر ، وبطريقة أدبية أخرى يدخلنا عالم جمال المرأة البتول وهي تستدرج رجلا إلى مغارة تمنطيط " لا تطأ برجلها رملا فيها إلا صار خضرة ، وتحولت ظلمتها إلى نور ، ووحشتها أنسا، وسراديبها أروقة غامرة،وسكونها حياة، ورهبتها أمنا، وطيورها الظلامية حوريات كواعبا، ورائحة طوبها الخانقة عطرا، وجرى ماء فقارتها سلسبيلا ، وأشرقت الدنيا في جنباتها"[2]، فصور الروائي بذلك الحياة وطهارة الحب، حين لا يكون الجنس الهدف الأوحد للغرام ، ثم يسوقنا إلى جلسة هادئة ينعم فيها الإنسان الصحراوي بما لذ وطاب: "فعادت الحسناء بصينية دائرية كبيرة وضعتها بينهما، فيها صحون صغيرة من الفضة الخاصة بعضها للطعام وآخر منها للفاكهات"».[3]

الفضاء الصحراوي ملمح سردي:

معروفة أدرار بتراثها الثقافي والحضاري وتخطوطاتها، وبزواياها التي تشق طريقا إلى الله، بين مذهب مالك ، وكثير من التصوف ، هذا الأخير على الأقل يمكن تلمسه منذ أول صفحة في الرواية فيها يشبه ما يعرف في كتب التراث بخطبة الكتاب وذلك على لسان الراوي ، مفتتحا كلامه بالاستغفار وطلب رضا الأسياد والأولياء وسلاطين الصحراء من جن وانس ، مردفا بأنه سيحدث عما حدث في هذه الأرض من أحداث وخوارق ، وما تما فيها من محبة شملت الكثيرين فاحترقوا بنار الحب ، فيذكرنا هذا بالمصنف الذي سيكثر ذكره في الفصول الأخرى من الرواية مصحوبا بقصة إسماعيل الدرويش مع السيدة ، مع ما للأنثى من رمزية صوفية إذ هي أيقونة السماء وانعكاس الأعلى في الأرض ، أنوثة تنسي آدم شقاء العالم ، فهي كما حدث الأب جبريل : "سر من أسرار هذا الإقليم"[4]،

---

[1] تلك المحبة: حبيب السائح، ص 30.

[2] المرجع نفسه، ص 284.

[3] رقان حبيبتي، وشهد شاهد من أهلها، مقال مخلوف عامر: الملتقى الوطني الثالث للكتابة السردية، دار الثقافة لولاية أدرار، من 1 إلى 3 ديسمبر 2013م، ص215.

[4] تلك المحبة: حبيب السائح، ص 217.

ولقد انعكست هذه الرؤيا على اللغة التي امتلأت بكثير من الشفافية والسلاسة وهي تصف جسد المرأة الشبق يتمطى بين يدي محب أو عاشق.[1]

ويمكن الزعم أن المصنف الذي ينسب إلى إسماعيل الدرويش، وتلوح بعض نصوصه داخل الرواية ، هو نفسه تلك المحبة التي اتخذت له خطة يتكلم فيها الراوي عما سيرويه في هذا العمل من أخبار جن وانس ، ويشير تلميحا إلى أهم شخوص الرواية وقصصها إسماعيل الدرويش والبتول، ثم يروي عن فتى خلاسي ذي أبوين عرضا من الطين وجوهرا من الذهب تغرب في محبة قهرتها أغلال من تلك العبودية ، ولعل هذا الفتى ليس إلا ليلو الذي ولد "الأمة" و"سيد" قهرته محبة ماريا فجاب الصحراء هائما ، باحثا عنها مكتويا بنار الغرام والشوق ، وهو يشير أيضا إلى عبد السيد وزواجه من البتول مكنيا عنه بقوله:" عن الفارس النبيل المتوج بالشهامة طوى في زوادة عشقه الفيافي وخطوة بين الحقار و بين أدرار كان للسيدة عرشا من تلك المحبة" [2]، ويشير إلى أشياء أخرى كنشأة أدرار ومن حفروا فقاراتها، وعن أولئك الخلق ممن يذكرهم بخوف.[3]

من أجل ذلك، يعتبر الفصل الأول أو بدايته على الأقل بمثابة خطة الكتاب التي تشير كل خطوطه العامة ، فتمثل ذلك في فصل "خطي بشفتيك على صدري صبر النخيل" ، فكان فاتحة نظرا لما يرمز إليه الفعل خطي بين كتابة لمصنف هو في آن واحد ما كتبه إسماعيل الدرويش عن السيدة في المصنف، وهو أدرار المدينة والبشر ابتدأت به من الاستغفار ، وما يؤكد تأويلاتنا السابقة إذ قال ختاما:" إن أدرار لا تسكن فلبي هاهي بعيدة من أصابعي قابعة في كفك، فهب لي حنينا لا أنسى به أني كنت امرأتها ، وارسمني اثر في مصنفك عنها وشما أكون حبره ، وانغز بقلمك لطفا، ثم أدع أن يغفر الله لكاتب المصنف، وقارئه، ومالكه، وقل تلك هي المحبة".[4]

تأثير الفضاء الصحراوي في اللغة:

أثر الفضاء الصحراوي على لغة الرواية فاستجابت هذه الأخيرة فتأثرت على مستويين اثنين: بالكتابة التي لها تاريخ أدرار من خلال المخطوطات الكثيرة التي تحفل بها الزوايا ، فكانت لغة الرواية واثقة مركبة من أساليب تنهل من روح ذلك التراث جميعا ، متشكلة بين تقديم وتأخير وحذف وإضافة أو بين إيجاز ومساواة وإطناب وفق ما يقتضيه حال السرد وموضوعه على حال السرد ، وعلى مستوى آخر تأثرت اللغة بالمشافهة التي تعرف بها أدرار ، خاصة ما تعلق بحكاياتها عن خوارق الأولياء وكراماتهم ، وقصص السابقين وأخبارهم ، ولعل هذا ما يظهر من

---

[1] ينظر تشكلات الفضاء الصحراوي في رواية تلك المحبة: مقال سعيدي محمد الأمين، ص146.

[2] تلك المحبة: حبيب السائح، ص 16.

[3] ينظر تشكلات الفضاء الصحراوي في رواية تلك المحبة: مقال سعيدي محمد الأمين، ص147.

[4] ينظر المرجع نفسه، ص 148.

خلال تعدد الروايات بالاعتماد على نسبة القول إلى جهات متعددة عبر عنها بالأفعال تارة:"يقول قالوا قيل وزعموا..."، وبالعبارات المتتابعة ضمن حلقة رواية مجهول أصحابها منقولة مشافهة تارة أخرى مثل:"عن امرأة ورجل عن فتى خلاسي عن الفارس عمن مذوا جسرا...".

من جهة أخرى تأثرت اللغة بالتعدد والتنوع اللذين تحفل بهما آدرار على مستوى الأشياء والأسماء ؛ فجاء السرد مرتكزا على الوصف ، مدققا في كل كبيرة وصغيرة عارضا للأسماء من أماكن وأكلات وأعشاب بعضها يستخدم للعلاج وبعضها الآخر للنداء والسحر ؛ فأصبح معجم الرواية بهذا كله متنوعا واسعا ، سواء ما أعاد الروائي إحياءه من مفردات العربية الفصحى ، أو ما ذكره من أسماء أماكن أمازيغية ، وما وظفه أحيانا من كلام شفوي مأثور ، هذا الأمر الذي يعتبر ظاهرة أخرى تستوقفنا لدى الحبيب السائح تتمثل في سعيه الدؤوب إلى توظيف الشائع في الاستعمال العامي، وهو أصلا من الفصيح، فما أكثر الكلمات التي نسيناها أو نتوهم أنها عامية تأخذ موقعها في السياق بما تستحق من أصل ثابت نحوا وصرفا.[1]

المكان في تلك المحبة:

يحيلنا ما ذكرنا من تأثر لغة الرواية بإدرار الواقع والتاريخ ؛ مباشرة إلى المكان في الرواية والذي يبدو هو الآخر محملا إدرار الواقعية إلى حد ما ؛ لكنه يتحول بفضل المخيال إلى عالم آخر يختلف عن الأصل ، بل إن هذه الأخير قد يبدوا أمامنا باهتا لذا يمكن القول إن من حق الحبيب السائح وقارئ تلك المحبة معه أن يصرح كما صرحه من قبله جبران خليل جبران حين قال: "لكم لبنانكم ولي لبناني" وأن يقول هو الآخر لكم أدراركم ولي أدراري" ، فذلك لأن أدرار داخل تلك المحبة تتحول إلى عالم من الإغراءات والعجائبية؛ تنمو فيه بهدوء كثير من المجالات التي تداخلت لتشكل معا رؤيا وموضوعا روائيا ، فأدرار تلك المحبة ساحرة ليس فحسب بالتاريخ والتراث اللذين تم توظيفهما لأنهما معروفان وإنما بتلك الهوامش الخفية التي نسجتها المخيلة ، سواء ما تعلق بوصف حال من حفروا المقارات، أم ما تعلق بالشعوذة والسحر وعالم الجن ، والأهم من كل هذا هو توصيف فتنة النساء والعلاقات الظاهرة والخفية بهن ؛ ولعل أهم نساء تلك المحبة جميعا ؛ تلك السيدة التي أخذت هالة أسطورية وكانت معشوقة الجميع من دراويش وفرسان ، ومنهم دون ذلك وما يتعلق بها وبسحرها الذي سلب عقول الرجال ؛ فالمكان في تلك المحبة هو الآخر يتسع معانيه وإيحاءاته بالاستناد على ما يحمله هو نفسه من دلالات ، فأدرار في هذه الرواية، تنهل من المقول التاريخي فيما يتعلق بقضية المغيلي مع اليهود مثلا ، ومن خلال تاريخ أدرار القريب-قضية رقان- أو البعيد، وأيضا من خلال أسماء أماكنها الحقيقية المعروفة التي تم توظيفها مثل "توات" "تنظروفت" "شروين"

[1] ينظر المرجع السابق ؛ ص 148.

"تدمايت" "قورارة "، والمعنى أن الاستعانة بتاريخ أدرار الحقيقي، هو ذاته في سبيل جعل أدرار الرواية تكتسي بوجه يشبه أدرار المتربعة في الجنوب الجزائري، لكن من ناحية أخرى أخذ المكان دلالته من خلال تأثيث الأحداث المتخيلة، التي تجري في أماكن قد تكون موجودة حقيقة في الواقع، كبعض القصور المعروفة، أو قد تكون متخيلة مثل بيت اسماعيل الدرويش، الذي أحاطت به احل الرواية حارق كثيرة. [1]

فللرواية تذكر رقان كثيرا وفي عدة صفحات منها الصفحة 21 ، الصفحة 29 ، أما التفجيرات جاءت ذكرا ووصفا، ففي الصفحة 30 تذكر الرواية: "..... العام الذي غابت فيه الشمس من أيام الشهر الثاني من التقويم النصراني بما أحدثته غمامة عظمى ، انفجرت نارا من قلب رقان..." أما وصف التفجير والاستعداد والنواتج ، فجاءت في الصفحة 302 و 303، وطبيعة المكان الطبوغرافية والامتداد الجغرافي ، وتصنيف البشر وتوزيع القلادات، والتأكيد على حملها [2]

للتأشير على الفئران البشرية ، وكيف تم نشر الخبر بين القصور الرقاية عن طريق البراج ، والاستعدادات التقنية وكيفية الانبطاح وتلاقي الضوء ، وفي الصفحة 304، 305 يواصل سرد النواتج ومخلفات التفجير على الأهالي والشجر والحجر ، وكل ذلك على لسان أحد الجنود كشاهد عيان والذي تأثر بفظاعة التفجير وعدم مراعاة الإنسان والأرض، كما سجل الروائي طرق تسجيل التغيرات الحاصلة على أجساد الضحايا وهفة الأطباء على التعرف على التغيرات التي حصلت على الفئران البشرية وكيف كانوا من قبل وبعد التفجير وتسجيلها. [3]

فالمكان في تلك المحبة ، نحل من الفضاء الصحراوي له خصوصيته ، لكنه وهذا هو المهم أضاف إلى الفضاء الصحراوي ما أنتجته المخيلة، وهو وصف وسرد قصص نماذج بشرية مختلفة جمع بينهم أدرار فجمعهم معها العشق وشملتهم المحبة واغواءاتها الكثيرة ، وما تجدر الإشارة إليه هو كون المكان في الرواية متنوعا متعددا بشخوصه الذين يختلفون في الانتماء والعرف والدين ؛ كحال ميروكة مع جبريل مثلا، وبليلو مع ماريا ، فهذا ما منح العمل بعدا إنسانيا ونبحث حقيقة فهو حين يصيب قلبين لا ينظر إلى انتماءاتهما ولكن إلى مقدار تلك المحبة.

إن الزمن في تلك المحبة متداخل جدا على مستوى الجملة ؛ أي على مستوى النص المحزز الذي روي على ألسنة مجهولة كقصة أدرار العتيقة أو يهودها القدماء أو قصة المغيلي معهم..الخ ، بل إن في مطلع الفصل الأول ما

---

[1] ينظر تشكلات الفضاء الصحراوي في رواية تلك المحبة: مقال سعيدي محمد الأمين، ص150.

[2] المدن الصحراوية في الرواية فجيرات رقان أنموذجا: مقال باية شياخ ، الملتقى الوطني الثالث للكتابة السردية، ص 168.

[3] المرجع نفسه، ص 168.

يشير إلى تعقيد الأزمنة في الرواية وذلك على لسان ما يفترض أنها أدرار ذاتها حين قالت:"فأذكر ولا تغفل أني التقيتك في بعد زماني فتخلص من كل مكان وترس فضاء ولا تنشغل بآت ولا ماضي ..."[1]

إن تلك المحبة انبنت من رؤيا عمادها اللغة أولا ؛ لغة تنهل من التراث ما يجعلها تغم أحيانا على البعض ، هذه الرواية تحتاج إلى قارئ حريء يصبر على تتبع مسارات السرد بغرض كشف أسراره والتعرف على أهم مميزاته ؛ لكنه أيضا قارئ مقتدر على قراءة هذه الجملة التي تشكلت متماهية مع موضوعها ؛ معبرة عن سياقات الأحداث ناهلة من خصوصيات المكان وملامح أدرر المتعدد الوجوه بتاريخها وواقعها ؛ وأيضا بانعكاساتها على نفسية الكاتب ، لكن من كل هذا ستمنح قراءة العمل القارئ كثيرا من ملامح الصحراء باعتبارها مكانا حافلا بالعمق والرؤية ، بل باعتبار فكرة يمكن تلمس خلفياتها على طول الرواية تقول إن المكان هو الإنسان بكل ما في الاثنين من تنوع ،وتعدد، واختلاف، وأن ما سيتبقى بعد الثقافي والتقادم هو الكتابة وفي هذه الحالة ستبقى تلك المحبة.[2]

فكتب الروائي عن الصحراء بعدما سلبته حريته عاشق وطبعته بطابعها الخاص ؛ فأضحى واحدا من قاطنيها ومريديها، يشرب كأسها ساعات من النهار وأطرافا من الليل ، يكتب عنها من معجمها الخاص ويرسمها بريشتها الخاصة، وليس لها بعد ذلك سوى الدخول في محرابها الشاخص نحو التجرد والابتهال ، لذلك كانت لغته في تلك المحبة لغة المريد المتصوف الذي عرف كيف يسلك إليها؛ فلغة تلك المحبة تشكلت من الخصوصيات ذاتها التي يكتنز بها فضاء أدرار ، فجاءت لغة تحاكي تراث المكان الذي اتخذت منه موردا لتشكلاتها ، لألفاظها ، وأيضا لدلالاتها؛ وفي هذا انطلاق من مقولة قديمة هي أساس البلاغة العربية ؛ تنص على أن يراعى لكل مقام مقال ، ففي تلك المحبة نلتمس ملامح الصحراء أو ملامح فضائها من خلال اشتغالات عديدة هي أساس أي عمل روائي ، أولها وأهمها اللغة وتشكلاتها وعلاقتها بالصحراء ، وتمثلها بموضوع الرواية أسلوبا ورؤية ، وبخصوصيات أدرار التي تكتنز بالتاريخ والتراث.[3]

أما الزمن وتعقيداته ، فقد فتح أدرار على مراحل مختلفة ومتضاربة من تاريخها ، والأمكنة المتعددة والمنقسمة بين منتمية إلى وقائع قريبة شهدها الناس، أو إلى أزمنة غابرة وصلت عن طريق التاريخ والأخبار ، وأيضا من حيث الشخصية التي تظهر على اختلافها أزواجا من ذكر وأنثى ، تحفل العلاقة بينهم بكثير من التعقيد ، وبروح صحراوية لها في المحبة والعشق رسوخ يصهر الجسد والروح قيصيران واحد ، فملامح الصحراء في هذا العمل إنما تظهر من خلال لغته وبنائه ، ومن جهة أخرى تبرز من خلال المحمول الثقافي الكبير ؛ والإلمام بتاريخ أدرار وعادات أهلها

---

[1] تلك المحبة: لحبيب السائح ، ص 17.

[2] ينظر تشكلات الفضاء الصحراوي في تلك المحبة: مقال محمد الأمين سعيدي: ص152

[3] ينظر المرجع نفسه: ص 149 .

وأسمائها وأماكنها، هذا المحمول الذي انعكس على الشخصيات فبدت على اختلاف مستوياتها ممثلة به ، مستمدة تفكيرها من خصوصيات تاريخه وثقافة أهله بتعدد مشاربهم وانتماءاتهم الاثنية والبيولوجية .[1]

فتلك المحبة كغيرها من روايات لحبيب السائح ، الفريدة من نوعها هذه الروايات التي تجمعها اللغة الكلاسيكية الراقية، والأحداث النابعة من الواقع المحض الذي يخالطه في بعض الأحيان خيال المؤلف ليضيف به تشكيلة من المهارات والتوابل الخاصة بفن الرواية ، وان اختلفت هذه الرواية —تلك المحبة– عن غيرها في كونها تتحدث عن تلاقح بين عالمي الإنس والجن في كثير من الأحيان ، وتحكي عن زمن غابر ، عن إحدى جواهر الصحراء الجزائرية "أدرار" .

[1]: المرجع السابق : ص 150.

الفصل الثاني

القضايا الاجتماعية في رواية تلك المحبة

من الطبيعي أن يكون المجتمع حجر الزاوية في كل عمل فني وفكري ، والإنسان ليس شيئا منفصلا عن مجتمعه، بل حجر في مجموعة البناء الإنساني، يتفاعل حتما مع كل من حوله ؛ إنه يتأثر بالنكبات الفردية والعامة، وبالأحداث السياسية والاجتماعية في وطنه، يتألم مع المتألمين، ويفرح مع الفرحين، ويحس بسعادة السعداء، وشقاء الأشقياء، وإذا كان هذا شأن الإنسان العادي ، فهو أحق أن يكون شأن الأديب والفنان ، لأن لا عدة له غير الإحساس المرهف، والتعبير الجميل، والدليل الصادق، والمرشد الحكيم، تلك هي رسالته، وذاك هو سبيله، كما أن المجتمعات البشرية ، دعاة، ومصلحين، ومفكرين، وأدباء، وشعراء، يؤدون دورا رئيسيا في تشييد البناء الاجتماعي المثالي، من خلال مناداتهم بالمثل والقيم العليا ، والإشادة بها، ودعوتهم إلى القضاء على كل ما يعيق تطور الإنسان نحو الأفضل، ابتغاء إيجاد بيئة اجتماعية تشيع فيها الفضائل والمثل.[1]

وانطلاقا من ذلك ، قام لحبيب السائح بواجبه الاجتماعي باعتباره فردا ولبنة في البناء الاجتماعي ؛ فوحد بين الأدب والحياة، وجعل التجربة الأدبية تجربة حياتية ، تجربة إنسانية شاملة، لأن الأدب عنده رسالة اجتماعية ، تهتم بموضوعات الحياة ومشكلات الناس، فكانت روايته تلك المحبة، ذات صلة وثيقة بالحياة الاجتماعية ، وما تزخر به من قضايا اجتماعية.

وهذه بعض القضايا التي أشار إليها في روايته، والتي أظهرت اطلاعا واسعا على تاريخ المنطقة أدرار.

---

[1] ينظر القضايا الاجتماعية في أدب جبران خليل جبران:مذكرة ماجستير، عبد الرحمن قيوش، إشراف محمد عبد المطلب، ومصطفى عبد الشافي الشوربي، القاهرة، 1410 هـ/1990 م، ص 192 .

قضية المرأة:

« المرأة نصف المجتمع البشري ، ومفتاح التقدم والتطور الإنساني، تصنع الرجال ، وتقف إلى جانبهم لمواجه ة الفقر والتخلف، فهي الأم، والزوجة، والأخت، والابنة، ولها أدوار في التنمية في العالم العربي».[1]

«و للمرأة العربية في العصر الجاهلي : فضل كبير في تنشئة أولادها تنشئة زاخرة بالشجاعة ؛ فهي تدرك قيمة المر ء الشجاع، الذي تنتظره القبيلة ليذود عنها، ويهرأكيد أعدائها ، ويكسب لها المجد والشرف ؛ فلا تسق نسائها وتمتهن فتياتها، يستذل شيوخها، ويهزم رجالها، وقد كانت منهمة الشعراء وباعثة عواطفهم الصافية التي خلدوا لها هذا الأدب العذب ؛ فكانت محور حديث الشعراء العرب، إذ أعز العربي المرأة وأشاد بذكرها ، وحزع أشد الجزع على هجرها، ووقف على أطلالها يندب حظه».[2]

«وقد وضع الإسلام المرأة في مكانها الصحيح ، حيث منحها حقوقها الإنسانية، والمدنية ، والاقتصادية ، ويتجلى ذلك في عدد السور التي تعرضت لأمور النساء وهي كثيرة ، منها : سورة البقرة، والمائدة، وسورة النور ، والمجادلة، والأحزاب، وسورة التحريم».[3]

«فرد لها حقها المسلوب في الحياة وأزال عنها ما لحقها من ذل ، بعد أن كانت تدفن فيلدا من عار وجودها ، وفي هذا يقول الله تعالى مذكرا من يمارس الوأد: **(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)**»[1]

وقد شغلت قضية المرأة جانبا كبيرا من اهتمام الأدباء ، والمفكرين، والباحثين، وسر اهتمامهم هو الواقع المر الذي كانت تعيشه، وما كانت تعانيه من مشاكل كبيرة.

وفي تلك الحبة تختلط عليك المرأة الرمز بالمرأة البشر ، فالمرأة الرمز كانت أدوار بامتياز ، والتي كانت تبسط غوايتها على الكاتب بلا منازع، يصفها وصف الهائم في عدة مواقع من الرواية ، بنخلها، وعجاجها، وأيام شمسها الطويلة وصفا عجيبا، وخصوصا في الفصل الأول منها ، والذي أسماه "لحظي بشفتيك على صدري صبر النحيل "في

---

[1] المشاركة الاجتماعية والسياسية للمرأة في العالم الثالث: د محمد سيد فهمي دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر الإسكندرية، ط 2008 م، ص 09.

[2] الأدب والمجتمع دراسة في علم اجتماع الأدب: حسين عبد الحميد رشوان، المكتب الجامعي الحديث الإسكندرية، ط2005م ، ص 139 .

[3] المشاركة الاجتماعية والسياسية للمرأة في العالم الثالث: د محمد سيد فهمي: ص 10.

[1] سورة التكوير: الآية 08، 09

ص15. وفي ص 25 تأخذ المرأة معالم النخلة ذات القدم في الماء، والرأس في النار، بصبرها وعطائها اللامتناهي، فوصفها وصفا حسيا تحسبه للوهلة الأولى يصف امرأة بشرية.[1]

أما بالنسبة للمرأة البشر، فقد قدمت الرواية العديد من النماذج النسائية التي زخرت بها المنطقة في تلك الفترة، بكافة مستوياتها الاجتماعية، فما قدمه لحبيب السائح أشبه بالمسح الاجتماعي، حيث قدم العديد من النماذج للمرأة النوايا القديمة في مختلف صور علاقتها بالرجل، ويمكن تصنيف هذه النماذج النسائية إلى ثلاث أقسام أساسية: النموذج الأول يمثل المرأة البرجوازية ذات السطة والجاه والمال، وشخصية البتول إحداها، وهي نموذج عن المرأة البرجوازية ذات القلب الطيب، اذ كانت تتصدق على المحتاجين من المسلين، وحتى من غير المسلمين —من النصارى– ومنهم الراهبة جولييت التي كانت تتردد كثيرا على منزلها لتأخذ الصدقة، أما المرأة المتجبرة التي تندرج تحت هذا النموذج، فقد كانت شخصية نجمة بلا منازع، فبالرغم من كونها سيدة بين أقرانها، حباها الله رزقا واسعا ،وخدما كثر، إضافة إلى أنها تزوجت بتاجر غني أغدق عليها من العطايا، إلا أنها كانت لا تحسن معاملة خدمها من رجال ونساء، وقد عرفت بعلاقاتها الجنسية غير الشرعية والشاذة، لا بسبب المستوى المعيشي المتدني الذي كان يدفع بالكثيرات غيرها الى احتراف البغاء، بل بسبب الشذوذ، وعدم التمسك بالقيم والمبادئ.

وهذه النماذج تمثل الطبقة العليا، فالزواج بها والعلاقة معها كانت عملية غزو اجتماعي، وتطلع بعيد المنال، خاصة إذا كان الزوج من طبقة أدنى من طبقتها، فالبتول بالرغم من طيبتها إلا أنها تمنعت عن الكثيرين ممن تقربوا منها، إذ كانوا جميعا ليسو بمستواها.

أما النموذج الثاني، فهي المرأة من الطبقة المتوسطة، والتي أعطت الصورة الحسنة عن المرأة النوايا، من حيث تمسكها بالتقاليد الاجتماعية، والقيم الأخلاقية والثقافية، لأن هذه الطبقة غالبا تتسم بالمحافظة، والنماذج عليها عديدة، ولعل أبرزها شخصية سليمة: زوجة خال مكحول التي استقبلت جميلة في بيتها بعد أن فرت من مشاكلها العائلية، كما وسعت لإيجاد عمل لها عن طريق زوجها المسؤول في الولاية. أما النموذج الثالث، فهي المرأة ذات الطبقة الدنيا، والتي اقترنت صورتها بالخادمة في بيوت الأغنياء من الأسياد، ومن ذلك شخصية طيطمة التي كانت تعمل عند البتول كخادمة وكذا والدة بليلو، إضافة إلى العديد من النماذج التي لم يدرج الروائي تسميات لها، ومما يندرج تحت هذا النموذج من نساء الرواية شخصية اليهودية الساحرة بنت كلو وبنت هندل، وقد صور لنا المرأة في

[1] ينظر: محاولة قراءة سيسيولوجية في تلك المحبة للروائي لحبيب السائح، باية شباح djazainewns-info/trace/49772-2013-1-8-9-38tntm

هذا النموذج، وهو أضعف حلقة في تلك النماذج اللاتي بأنها لم تكن مسلوبة الصورة الاجتماعية فقط، بل حتى الصورة الجمالية، فهي لا تحظى بأي سمة من سمات الجمال ، إذ صورها في أغلب الأحيان أنها امرأة خشنة : لها بشرة سوداء اللون، بعيدة عن كل صفات الأنوثة، مكانها بيت بسيط يتناسب مع وضعها المادي والاجتماعي ، وهو بهذه الصفات والنماذج، إنما يلقي الضوء على الصراع الطبقي الذي عاشه المجتمع آنذاك.

إلا أنه في تصويره للمرأة لم يقف عند تصوير المستوى الاجتماعي لها ولا عند الوصف الحسي، بل كان يمضي إلى الأعماق، إلى خلجات النفس واهتزازات العواطف، فهو يرى الحب في الروح قبل الجسد، ومن ذلك تصويره لقصة ماريا القاورية، التي عشقت بليلو ؛ والذي كان عبدا ذو بشرة سوداء، إلا أن له روحا طيبة لم تستطع ماريا إلا أن تعشقها، وكذا قصة ميروكة التي كانت خادمة لدى البتول ، والتي عشقت بدورها الأب جبريل النصراني شقيق ماريا، لأنه كان يعيش بين أظهر التواتيين فترة طويلة من الزمن.

فطبقة العبيد من النساء ، كانت أكثر طبقة تعاني سلب الحقوق و الإرادة، إضافة إلى انتهاك حريتها من طرف الطبقة العليا أولا ، ثم من طرف الرجل ثانيا، فميروكة التي عشقت جبريل، تزوجت من غيره بإرادة من سيدتها، وأيضا مشهد تراجع زوج الأمة والدة بليلو ، لأنه وجد نعل سيده لدى الباب إشارة إلى أنه يواقعها ، يضعنا أمام إحدى الصور الإنسانية الأشد شعورا بالقهر.

فالمرأة البسيطة في تلك المحبة تحت وطأت وأمر الرجل في الغالب يزوجها لمن يشاء ويمنعها عمن يشاء يتصرف بمشاعرها حسب هواه ويكبت عواطفها ، فتظل رهينة البؤس والشقاء والتعاسة محرومة من حق الحياة الحرة وأن تختار من تحب، خاضعة لإرادة ذويها، مضطهدة من الرجل ومن المجتمع، هي إنسان مغتصب لا يملك جسده ولا أحاسيسه، مسلوبة الوجود والإرادة، بدليل أسلوب تزويجها ، ذلك الأسلوب الذي يجعله " سلعة رخيصة لا وزن لعواطفها ومشاعرها .

فالرواتي بهذهالنماذج صور لنا المرأة بطريقة تنبئ عن معايشته لواقع مجتمعه ، وتفاعله مع قضاياه، وإحساسه بمشاكله، وبكل مظاهر الإذلال والعبودية التي مورست على المرأة.

فقضية المرأة اذن حاضرة في النص وبقوة ، وترتيب النماذج عليها بحسب الترتيب المادي والاجتماعي ، فللعرافات وأمثالهن من الإماء ترتيب خاص، ولنساء الطبقة المخملية ترتيبهن الخاص أيضا.

قضية الدين:

«يوجد الدين في كل مجتمع إنساني، ويقوم بوظائف اجتماعية رئيسية ، تهدف إلى حفظ تماسك وترابط أفراد المجتمع الواحد، هذا بالإضافة إلى الوظائف النفسية، مثل الشعور بالراحة والقوة، للاعتقاد في أن قوة غيبية عظيمة تساعد الانسان في حياته وبعد مماته ، ولذلك لا يعيش مجتمع إنساني بدون دين، وقد لوحظ أن الأديان السماوية الكبرى: الإسلام، والمسيحية، واليهودية، قد هبطت في مجتمعات متمدنة ، أما المجتمعات البدائية و فقد فرضت عليها عزلتها الاجتماعية والمكانية عدم التعرف على الأديان السماوية الكبرى إلا منذ عهد قريب ، ولذلك ظل معظمها متمسكا بمجموعة من العقائد والطقوس المتوارثة من أجيال قديمة ، وقد شعرت المجتمعات المتمدنة بواجبها الديني نحو المجتمعات البدائية، فعملت على شرح الأديان السماوية في تلك الج تمعات، مما أدى إلى اعتناق الكثير منها الإسلام والمسيحية، ويجب الإشارة هنا إلى حملات التبشير التي ترسلها الدول الغربية في المجتمعات البدائية ، فقد ثبت فشلها في تعميق المفاهيم الدينية في عقول البدائيين ، ولذلك عندما خرج الاستعمار من شمال إفريقيا، ارتدت الكثير من المجتمعات البدائية إلى أديانها القبائلية ، وتركت المسيحية ، بينما انتشر الإسلام بطريقة الإقناع والفهم، وبدون تنظيم حملات تبشيرية».[1]

وفي الرواية تظهر لنا الإشارة جلية واضحة إلى قضية محاربة اليهود والمسيحين للدين الإسلامي ، التي عانى منها المسلمون كثيرا في الجزائر عموما ، وصورها الروائي في روايته في توات تحديدا، ولذلك كانت من أولى القضايا التي أشار إليها، فمباشرة بعد حديثه في الصفحات الأولى عن ميلاد أدرار في الفصل الأول ، جاء الحديث عن هذه القضية والنازلة التي ألمت بالتواتيين في الفصل الموالي الذي وسمه ب" كوني لي أندلسا بين توات والقدس" ابتداء من الصفحة 27وحتى الصفحة 50؛ والتي بدأ فيها الحديث بالإشارة إلى محاكم التفتيش التي أنشأتها الكنيسة في اسبانيا، وقد عرض فيها الأساليب التي انتهجتها ضد المور بهكيين لإثبات إدانتهم، ومن ثم تعذيبهم ، وحرقهم في الساحات العمومية، على مرأى ممن كانوا يعشقون هذه المناظر، ويستمتعون بمشاهدتهم يحترقون ، وقد عرض لنا إحدى هذه الصور بدقة، تنبأ عن اطلاع واسع بممارساتهم ضد الموريسكيين ، فحسن لم يتمكن من اقناع الكنيسة أنه مسيحي ولا يعتنق الاسلام والحجة أنه غير مختون ، ذلك لأنه لم يكن يعلق صليبا فكان جزاءه أن أرسل مع الملاحين المتجهين إلى المغرب، لما عسمه من علوم عن البحار والاتجاهات، وكذا معرفته بلغة أهل الصليب ، فهو لم يكن موريسكيا عاديا –على حد تعبيره في الرواية – بخلاف والده الذي تيقنوا أنه مسلم ، باق على دينه متمسك به، فسجنوه في قبو الباخرة بعيدا عن ضوء الشمس ، حيث الجرذان والرطوبة تأكل جسده ،كما وصور العديد من

[1] الأنثربولوجيا الاجتماعية: عاطف وصفي ، دار النهضة العربية لطباعة والنشر، بيروت لبنان، ص 140.

مظاهر الاضطهاد الذي تعرض له الموريسكيين واليهود على حد سواء؛ من إجبار على التنصير، وكيف كانوا يزجون بمن ضبط يصلي أو يتلو القرآن في السجن حتى يموت ، فقد حرم عليهم ممارسة أي شعيرة إسلامية، كما أن الكنيسة نشرت عيونها التي تستطيع قراءة شفاه الموريسكيين إذا كانوا يتلون شيئا من الذكر ، ولذلك اضطر الكثير منهم إلى اعتناق المسيحية شكليا لأنهم كانوا يخشون على حياتهم من الكنيسة.

إلا أن هذا لم يكن حاجزا أمام تأدية المسلمين لشعائرهم الدينية ، لكن خفية وفي أماكن سرية للغاية ،كأقبية المنازل، فمحمد التلمساني –كما كان أبا حيدة يروي للبتول–كان مصرا على أن يختن كل ابناءه وأحفاده رغم كل ذلك، كما أقاموا عرس شقيقته على الطريقة الإسلامية، مدعين أن جده توفي ليحضر الناس ، فقد كان قادرا على حبس أنفاسه مدة طويلة لو جاءت الكنيسة لتعاينه ، فعقدوا القران في قبو المنزل ، كما وذبحوا على الطريقة الإسلامية؛ فتفردت الرواية بذلك الكثير من الأحداث التاريخية الدالة على قسوة وهمجية رجال الدين المسيحيين ، وعلى تعصبهم لدينهم، وعلى صبر وتشبث الموريسكيين بدينهم وثقافتهم الإسلامية.

كان هذا حال الموريسكيين ممن استطاعوا الإقامة في الأندلس، كما جاء في الرواية، أما من هاجروا منها فارين بدينهم مسلمين يهود، فقد اتجه معظمهم إلى البلاد العربية كالجزائر ؛ وفي منطقة توات كما جاء في الرواية ، أسس اليهود تجارة كبيرة، فاستقروا بعد أن تمكنوا من التحكم في زمام الأمور ، فتحكموا في أرزاق المسلمين وحتى في أمور دينهم، فقد نقلت لنا الرواية الذميين بكل أفعالهم الدنيئة ، التي مست الجانب الديني للإقليم فتعاملوا بالربا وفرضوه على المسلمين ، وأخضعوا القادة لإرادتهم بدفع الرشوة إليهم مقابل حمايتهم ، وصور لنا تهربهم من دفع الجزية لبيت مال المسلمين، ونشرهم للدسائس للتفريق بين المسلمين ، وشرائهم ذمم قابضي الجزية بأن دفعوا اليهم مبالغ أكبر من قيمة الجزية دفعة واحدة ، فلذلك — على حد تعبيرهم – أهون من أن الذمي منهم يذهب في كل مرة برجليه مكرها إلى قابضها، ثم يتلقى صفعة على قفاه قبل أن يقفل راجعا ؛ كما أشار إلى تعاملاتهم الاجتماعية التي كانت تستهدف المسلمين، عن طريق قصة الذمي الذي عرض على جماعة لالو يوم دخل النصارى إلى الجزائر، وأصبحوا مجبرين على تأدية اللازمة —مبلغا من المال– وكان كثير منهم لا يملك ما يدفع به بطش القائد ، عرض عليهم أن يعطيهم المال مقابل أن يقولوا التلمساني ظلم أهله ، وكان ذلك الذمي أحد أحفاد اليهودي الذي أنجته النخلة في قصر تاخفيف ؛ أين سرى في جذورها ليخرج من الفقارة ، ثم ادعى الإمامة في قصر تمنطيط فكان يصلي بالناس على جنابة، ويذبح شاته دون أن يسمي أو يستقبل القبلة ، ويبلل لحيته بماء نجس ويرش به المصلين مقنعا إياهم أنه ماء مقدس ، وكان قد أقسم على الثأر من المسلمين ، فرجم يوم اكتشف أمره ، بعد أن قبض قرب

أسبع فارا بفعلته ، ومن أكتشف أمره هي عبدة كانت في يمينه وعندها ذات مرة بأن يعطيها مالا طائلا إن هي نسبت ابنها منه إلى أحد الأسياد، وكانت قد ضبطته يؤدي بعض الطقوس الدينية اليهودية.

كانت هذه التصرفات السلبية التي بدرت من اليهود في المنطقة أحد أهم مظاهر الفساد الاجتماعي والديني ، والاعوجاج الأخلاقي الذي انتشر بتوات ، وهذا ما أثبتته حفيظة محمد التلمساني الذي جاءه والده في المنام عدة مرات يحثه على تصفيتهم من توات ،كما وأشارت الرواية إلى اتصاله بالعديد من القضاة من داخل وخارج الإقليم، بل ومن خارج الجزائر للفتوى في أمر طردهم من البلاد العربية و هدم كنائسهم، وكيف أنه اتصل بقضاة من المغرب ومن بلدان أخرى بعد اختلافه مع القاضي العصنوني في أمرهم ، فأيده من أيد وعارضه من عارض ، وكان من معارضيه حسن الذي فر من الأندلس، فأجابه محمد التلمساني ردا على معارضته: "لو أنك دخلت توات ورأيت حاضرة تمنطيط لأدركت خطر من جعلت منهم الضحية "، وكان محمد التلمساني جهر بدعوته لما عاين وشاهد ذلك، فدعى إلى اصلاح الوضع ، وأعلن معاداته لليهود بمقولته الشهيرة: "إن يهود توات وتيقورارين قد حلت دماءهم، وأموالهم، ونساءهم، لأن الذمة التي ترفع السيف عنهم، هي الذمة الشرعية لا الذمة الجاهلية، وإنما تكون لهم الذمة الشرعية مع اعطاء الجزية عن يد وهم صاغرون، ويجب أن يلتزموا بجمع أحكام أهل الذمة ".

قضية العبودية والحرية:

«ينطلق علماء الاجتماع الغربيون من النظر إلى أن أي مجتمع ، لا يمكنه أن يستمر في الوجود دون طبقات متدرجة من السمو إلى الانحطاط، موضحين بهذا هرما من اللامساواة الإجتماعية التي تسود المجتمع، وكل طبقة تتميز بأوضاع معينة وتضم مزايا وخصائص فطرية لكل وضع اجتماعي، كما يتميزون بوظائف محددة».[1]

وقد أشار الروائي إلى هذه القضية بعرضه للتقسيم الاجتماعي المحلي ، إذ لا هو بتقسيم عرقي ولا ديني ، بل تقسيم آخر مارس في المنطقة، وصفه اعتمادا في غالب الظن على مصدر شعبي، قد يتغير بحسب رتبة المصدر من التقسيم نفسه، وهذا التقسيم هو : "الشرفاء" ولهم فضل النسب ؛ ويلحق نسبهم بابنة المصطفى صلى الله عليه وسلم، و"الزوا": وينسبون لأبي بكر رضي الله عنه كما يقال محليا ، بالإضافة إلى "العرب" نسبة لعروبة خير البشر، ونلاحظ في الترتيب خيرية الصحبة على الانتماء العرقي ؛ وهم معا سكة الفضة؛ وفرسان الدين، والمرابطين، والبربر النحاس، ثم طبقة "العبيد"، الحديد، انه في الواقع تقسيم طبقي معادلته بالترتيب المعدني ، فكانت طبقة العبيد تلحق بالصحابي بلال بن رباح رضي الله عنه ؛ الروائي وبعد إشارته إلى كل هذه الأصناف ومقابلتها بالمعدن الذي يناسبها ونسبتها إلى أحد الصحابة ، أو إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ختم هذا التقسيم بتساوي البشر ، إذ ردهم كلهم الى آدم ، ولله يصيرون جميعا ، غير أن هناك في الرواية إشارة إلى أن هذا النسيج البشري في منطقة أدرار، قد يختلط خلسة من الضوابط العرقية والعقائدية، وأبرز مثال على ذلك شخصية بلبلو الذي حملت تقاسيم وجهه شيئا من أبيه وآخر من أمه ، فكان حسن الوجه كما كان سيد والدته وسيده فيما بعد ، ولكنه بلون أسود كأمه الأمة، وتعود الرواية لتعرض تلك التركيبة البشرية الأخرى في النهاية، عند دخول كل مجموعة من باب خاص بها من أبواب أدرار الأربعة، المفتوحة على مشهد صغير للحشر، أين يعترف كل واحد بما اقترفته حواسه.[2]

وهذه القضية واحدة من أبرز القضايا التي أشار إليها في تلك المحبة، إذ نظر إلى واقع المجتمع الأدراري فوجد الناس مستعبدين بالتقاليد والعادات التي شكلت عائقا في وجه تطورهم ، فالإسلام منذ ظهوره، أشار إلى المساواة بين الناس، أبيضهم، وأسودهم، غنيهم، وفقيرهم، جميعهم عند الله سواء لا فرق بينهم إلا بالتقوى، وما رسخ تلك التقسيمات في المجتمع التواتي ، هو تمسكهم بتقاليدهم البالية ، فتلك التقاليد باعتقادهم هي التي توثق حاضرهم بماضي آبائهم، ففي أكواخ العبيد، كان يرضع الأطفال العبودية مع اللبن ، والصبيان يتلقون الخضوع مع

---

[1] علم الاجتماع الريفي: غريب محمد سيد أحمد، وعبد الباسط محمد عبد المعطي، دار المعرفة الجامعية، ط 2004، ص 258.

[2] ينظر محاولة قراءة سيسيولوجية في تلك المحبة للروائي الحبيب السائح، ابنة شياخ . -djazainewns info/trace/49772-2013-1-8-9-38tntm

حروف الهجاء ؛ والنساء يرتدين الملابس مبطنة بالانقياد والخنوع ، وهذه العبودية غمرت حياة أطفالهم بالذل والشقاء، فشبوا تعساء ، وعاشوا محرومين، وتوا مذلولين كآبائهم العبيد، في حين ينصب أبناء الأسياد أسيادا كآبائهم.

هؤلاء العبيد هم من حفر أحد أهم المعالم المادية للحضارة التواتية –القفارات كما جاء في الرواية على لسان بليلو: "سمعت السيد يقول لي في ليلة ضيقة كنت خدمت فيها أن أجداده اليمنيين الذين استوطنوا توات بعد الفتح، هم الذين أمروا بحفر الصحريات كما كانوا يسمونها، ولذا كان أحد أجدادك هم الذين يفقرون الأرض، كما يفقر الذهب النعاج؛ سموها الفقارة، فغلب اسم اليد التي تحفر ؛ اليد التي تملك " ؛ ومن خلال هذه النصوص تتبين لنا مدى معاناة أولئك الرقيق الذين طوعوا الصحراء وحولوها إلى واحات غناء، تضم بساتين النخيل الوارفة الظلال، والوافرة الغلال وكانوا يقومون على جميع أعمال الأسياد المتعلقة بالزراعة ورعاية الماشية وغيرها من الأمور المحتقرة التي لا يمارسها لا أبناء تلك الطبقة ، كما كان الأسياد لا ينسبون أبناءهم من إماءهم لأنفسهم، بل كانوا يلحقونهم بأزواج أمهاتهم من العبيد ، وهذه واحدة من أبشع صور العبودية، واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان، فبليلو لم يأسف ، ولم يتأثر بوفاة زوج أمه لأنه كان يعلم يقينا أنه ليس والده الحقيقي ، بل نسب إليه بأمر من سيده.

كانوا رجالا ينتبت الصبر من أنفاسهم نبات الحضارة ، إنهم الخلاسيون كما يعرفون محليا ، ومقابل ذلك لا يحصلون إلا على صاع من الزميو ، أو حفنة من التمر، أو الحشف مما كان الأسياد يطعمون به ماشيتهم.

فالروائي صور لنا ذلك بطريقة تبرز معاناة رقيق الصحراء ، فطريقة التصوير التي انتهجتها أم بليلو : أضفت على طبقة الرقيق طابعا مأساويا، وصورت مدى المعاناة التي تحملتها هذه الطبقة في تشييد القصور ، وإضفاء صفة الحياة على القيافي والقفار ؛ التي تحولت بجهدهم، ودمائهم، وعرقهم، إلى واحات وجنات خضراء على امتداد البصر.

هذه الطبقات هي ما أفرزت في المجتمع التواتي نوع من الظلم واللامساواة ، يتمثل ذلك في ظلم الأغنياء أصحاب الأملاك أو م ن عبر عنهم في الرواية بالأسياد ، للفقراء الضعفاء ذوي الطبقة الدنيا ، وهي طبقة العبيد ، ففشت فيهم الآفات الاجتماعية، وفي مقدمتها الجهل والأمية.

قضية السحر والشعوذة:

«من الأمور الغامضة المحيرة التي ستتعصي على الفهم ، تلك المسائل والموضوعات التي أطلق عليها في مجموعها علوم ما وراء الطبيعة: ومنها ظاهرة السحر.

والمعروف أن السحر منذ العصور الموغلة في القدم ، أداة يعتقد الناس أنها تعينهم في حل مشكلاتهم ، التي يربطونها بعالم الغيب، الذي يتحايلون على جلاء غموضه ، ورفع بعض أستاره، بشتى الوسائل التي تدخل في هذه الظاهرة.»[1]

وقد أشار الروائي في روايته الى أن السحر في المنطقة ، كان من الطقوس التي تمارس بشكل فردي أو جماعي، وكثيرا ما كان هذا الطقس يمارس في الخفاء ، فاعتمدوا في الغالب على عبارات ، وتعاويذ، وصيغ غير مفهومة حتى من طرف الأشخاص الذين كانوا يستخدمونها .

ويهود المنطقة أكثر من عرف بهذه وهذا راجع للحنفية الدينية لهم ، لاعتقادهم أن سليمان عليه السلام انما أوجد ملكه العريض، وجاهه العظيم بفضل السحر ، فبه سخر الإنس والجن أيضا، كما سخر الرياح تجري بأمره، وإن كان دينهم وكتابهم المقدس يشدد أيضا على السحرة ، ويهدد من يثق بهم ويتوعدهم بالعقاب الشديد ، وتبرز في الرواية نماذج عن السحرة منها شخصية العرافة بنت هندل وبنت كلو اللتان برعتا في هذا المجال وكانتا يهوديتان، وكثيرا ما أرفقتا تلك التعاويذ بتناول بعض الأطعمة الغريبة والمحرمة شرعا ، والحارة في كثير من الأحيان لتجنب الانتباه إلى طعمها اللاذع، وأحيانا يأمرون بحرق بعض ثياب الشخص المسحور أو شيء من شعره، وفي أحيان أخرى وضع أحجبة تتضمن أوراق، كتب بها طلاسم غريبة تحت وسادة المسحور .

وجدير بالذكر أن النواتيين في الرواية لم يكونوا أقل تعصب وتطير من اليهود هذا الجانب ، فقدسوا الأولياء، الموتى منهم والأحياء ، والذين لم يعظمهم البعض ، إلا لينال منهم الصحة لأنفسهم ، والخصوبة لزوجاتهم العقيمات، ومن ذلك أن طيطمة كانت تنبأ للمساء عند مجيء تلك الرياح الشرقية ، التي كانوا يعتقدون أنها ذلك الرجل الصالح المسافر الى البقاع المقدسة، والذي يأتي لزيارة زوجته كل عام على هيئة تلك الرياح، إنها ليست فقط لتلقيح النخيل بل حتى النساء العواقر ، فرأوا في أولياء الأولياء القدرة على فعل المستحيل، و إبطال عمل الحسد والسحر، وهذا في حد ذاته نوع من التفكير الغيبي، وقد تنبأت عرافة يهودية بمجيء رجل صالح يقضي على اليهود في توات، فكان ذلك فعلا كما تنبأت.

[1] السحر والمجتمع: دراسة نظرية وحيل ميدانية، سامية حسن الساعاتي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ص 15

فسحروا لنوقاية من العين، ولتقوية المحبة بين الزوجين ، ومن ذلك ما بدر من شخصية نجمة التي سحرت زوجها بأن أطعمته خبز مصنوع من حليط السميد والحريطة ومخ القط الذي ذبحته بيدها، ممزوج بقطرات من سم عقرب الحضاب الأسود المنصوف، كما وضعت تحت مخدته حجاب به الحلبة السوداء، والسفافيدة، والفلفل الحار الأحمر اليابس، إضافة إلى بعض البهارات الحارة، حتى لا يكون لغيرها من النساء، ثم إنها أحرقت تلك المخدة بعد أن غرزت فيها الإبر ، حتى يحترق قلب زوجها عليها غيرة ، غير أن تلك التعويذة باءت بالفشل، إذ تزوج عليها امرأة تاركية، أفشى لها سرا عن زوجته الأولى، فكان ذلك سبب هلاكه ، وسحروا أيضا بحلب الحبيب وجعله خاتما في إصبع محبوبه، فقد سمع "بليلو"وصفة من أمه، عندما كان يدعي النوم في الحجرة ، أين دخلت احدى حبيبات أمه تستنجدها بوصفة لذلك فأخبرتها أن مخ الميت الساخن الذي دفن للتو، ورأس القط الأكحل وشحمه الأرض مخلوطة بالطعام المبركش بيد يسرى لميت مضى على موته سبعة أيام ؛ وصفة ممتازة لهذا الغرض، وقد تذكر "بليلو" هذه الوصفة عندما أحب ماريا النصرانية، التي سكنت توات، ودرست معه بمدرسة بشار، وفي هذه الأمثلة إشارة إلى سيادة السحر في تلك الفترة بالمنطقة ، لأن الناس رأوا ضرورة إتباعه لارتباطه بحياتهم اليومية ، وأمورهم الحياتية، ورأوا فيه قضاء لحوائجهم، وهو ما دفعهم لاسترضاء السحرة بمختلف الطقوس والأعمال السحرية، بغية طلباتهم، وسبب ذلك كله خوفهم وعجزهم ومحاولة ايجاد الحلول للمشاكل التي تعترض مسيرة حياتهم ، وأيضا لغياب الوازع الديني عندهم ، ومما ساعد على رسوخ هذه الظاهرة الاجتماعية كذلك، شخصية الساحر ، وشخصية الباحث عن السحر، والفوائد التي كان يمارسوا هذه الظاهرة يجنونها.

"فينت كلو" مثلا كانت تمتاز بقسط كبير من الخلق الاجتماعي والدهاء الفطري، والكثير من المكر والمهارة في انتهاز الفرص للقيام بأعمالها، كما أن الكثيرين من مريدها كانوا يتوقون إلى معرفة الغيب ، ويحبون التطلع إلى ما في الخفاء، فتمسكوا بحالات فردية أتى فيها السحر بنتائج مردها إلى الصدفة ، ونسوا آلاف الحالات التي أخفق فيها، وقد أشارت الرواية إلى نماذج عديدة من السحرة النساء ، إذ غالبا ما يكون الساحر امرأة ، وأطلق عليها في الرواية "العرافة"، كما كانت النساء أكثر المترددات على هذه العرافات، إلا أن هذا لا ينفي أن للسحر نماذج من الرجال، كانوا في أغلبهم من رجال الدين والقضاء، شخصيات ظاهرها يبعث على الهيبة والاحترام ، و خفيها يضمر الرذيلة، ومن ذلك شخصية الطالب أبا حيدة الذي كان "يكتب" للناس أحجبة، كما رد شيخ شروين كثيرا من الطامعين في التقرب من تلك السيدة النبيلة، بواسطة السحر في ص 107، وقصة اليهودي الذي حاول إعادة ذلك الرجل الصالح إلى الحياة ليأتيهم بسر الهيكل، بأن رسم مربعا في الأرض، وجاء بكتاب سحرهم، وأخذ يتلو

بعض الطلاسم، فاجتمع ضباب كثيف في سماء القبر، ثم دخل ذلك الضباب إلى جوفه ، ليتقصب الميت في كفن أبيض بعد أن أزيلت عنه حجارة وتراب القبر، ثم انشق عنه ذلك الكفن فيما بعد.

فظلت هذه القضية مسيطرة تصر على إثبات وجودها حتى ظهر (محمد التلمساني) المغيلي ، الذي خلص التواتيين من شر اليهود السحرة.

الطقوس والرموز الثقافية:

تختلف المجتمعات بعضها عن بعض من حيث الظواهر الفيزيائية، والعوامل الجغرافية فتختلف التجربة الإنسانية، وبالتالي تختلف هذه المجتمعات من حيث العادات، والتقاليد، والمبادئ ،والقيم الثقافية والاجتماعية، تلك القيم التي تمثل انعكاسات للتجربة الإنسانية للمجتمع، والظروف الاجتماعية والاقتصادية.[1]

ويعرف علماء الاجتماع القيمة بأنها المقياس، أو معيار الانتقاء من بين البدائل والمخلفات الاجتماعية، أما الثقافة فهي في تعريفها البسيط، تلك المجموعة من القيم المادية، واللامادية التي يخلفها الإنسان في سياق تطوره الاجتماعي، وتجربته التاريخية، وهي تعبر عن مستوى التقدم الذي وصل إليه المجتمع.[2]

وهذه القيم الثقافية أو الطقوس، هي كل عادات وتقاليد المجتمع، كما تضم كل أنواع الاحتفالات التي تستدعي معتقدات تكون خارج الاطار التجريبي، وتكمن أهمية الطقوس في اثبات استمرارية الحدث التاريخي الشهير، فالطقس يستمر من خلال تكراره، لضمان بقاء الحدث الاجتماعي الذي أوجده، فهو إعادة خلق، وإحياء لماضي غامض غالبا.[3]

وقد أشار الروائي في هذه الرواية، إلى العديد من الطقوس والرموز التي تمثل بصدق هذه المنطقة، وتعبر عن هوية سكانها، وقد عرضها في مشاهد متفرقة من الرواية نذكر منها:

مشهد الرابطة: وهو مشهد احتفالي يعرضه الروائي عند دخول المرأة العدة إلى غاية انتهاء أيام عدتها، مع الاحتفاظ باللون الأبيض كدلالة على الحزن، وفيه يحتفظ بالأسماء كما في أصلها، ومنها المشاقة: وهي ما يلتصق من الشعر بالمشط، والقوس: وهو الغرفة، والزقاق: وهو الشارع، ثم وبعد انتهاء العدة تأتي طقوس نواح الرابطة، ويكون ذلك من بداية النهار إلى آخره ليعلن عن تحرر المرأة من التزامها الشرعي، فيعرض الروائي خروج المعتدة إلى حفرة الحزن، ودفن كل ما كانت تلبسه طوال العدة مع أحزانها.

جلسات الطبل: الرواية غنية بمشاهد الحياة الثقافية، منها ماهو ديني ،كمشهد الأسبوع بتيمبسون، ومنها ما هو اجتماعي، كالأعراس والاحتفاء أثناءها بسماع شعر الشلالي، فجلسات الطبل كما يصورها الروائي[4]

---

[1] ينظر علم الإجتماع الريفي:غريب محمد سيد أحمد،وعبد الباسط محمد عبد المعطي، ص 258.

[2] ينظر المرجع نفسه، ص 319 .

[3] ينظر الدين والطقوس والمعتقدات: نور الدين طوالبي: ترجمة وجيه البعيني: منشورات عويدات، بيروت، لبنان، ص 34 :

[1] ينظر محاولة قراءة سيسيولوجية في تلك المحبة للروائي الحبيب السائح: بداية شباخ ، -djazainewns info/trace/49772-2013-1-8-9-38tntm

مفصلة بدقة وكأنه جالس بالقرب منها باستغراب، فشخصية بليلو الاستثنائية كانت في ذلك عين الكاتب على تلك الجلسات، ودليله إلى الممارسات الأخرى، وقد كانت شخصية متصالحة مع نفسها، شاهدة على ما يعيشون من ازدواجية، وهو ما يبرز في الرواية في الصفحة 69 و 70.

جلسات التنفيحات: هذه الجلسات كانت منتشرة في زمن غير بعيد، يعرفها ويتناقلها، ويتبادلها ممارسوها فيما بينهم خلسة من الرقابة الدينية والقانونية، يعرضها الكاتب بكل تفاصيلها في الصفحة 78 و80، بوصف دقيق لطقوسها وأدواتها، وطرق تحضيرها بحميمية لا تحظى بها المرأة نفسها، يعرض الروائي ذلك من خلال شخصية بليلو، ذو المقدرة العالية على الكتمان، وعدم كشف المستور، مقدرة تمسك بالرقاب، فقد كان هو من تعلم زراعة الحشيشة في البداية، لاستخدامها فيما بعد في تخدير أسياده، وإذهاب عقولهم بعد استنشاقها بواسطة النسيسي الذي كان مقدسا في تلك الجلسات.

الجلسات العادية: وقد صورها الكاتب عن طريق شخصيات الرواية التي عاشت وتعايشت مع الواقع ومنها قعدة العيش، وهي إحدى الجلسات التي لها طقوسها الخاصة، ومنها وظيفة سمار اللحم ومكانته الاجتماعية، في إشارة من الكاتب إلى أن المجتمع الأدراري محافظ على تراثيه حتى في أبسط الجلسات، ويمكن أن نلاحظ هذه التراتيب في نوعية أجزاء اللحم ومن تعطى، انه تقسيم خاضع للجنس — رجل /امرأة- فهناك أجزاء مميزة تعطى الرجال دون النساء، وأجزاء خاصة بالنساء دون الرجال، كما يعطى للنفساء التي تلد ذكرا أكل خاص، عكس النفساء التي تلد أنثى، والتي تعطى عيش الشعير وخم الراس.[1]

ومن الجلسات العادية أيضا الجلسة على الدكانة، والتي تروى عليها جميع مشاكل المجتمع — النزاع، الخصام، الظلم القتل، الثأر، والديات، وجرائم الشرف، والطلاق، والسرقة، والخوف من الجوع، ونضب الفقارات، والسحر...الخ.

فقد أشار الروائي إلى بعض التعابير الثقافية التقليدية، والشعبية بالمنطقة، والتي كانت وليدة تجارب حياتية واجتماعية متعاقبة، وكلها ذات دلالات وإيحاءات معبرة، تعبر عن حياة الأفراد والمجتمع الأدراري القديم، فمرافقة الرابطة إلى حفرة الخزن، دليل على روح التكافل والتضامن بين أفراد المجتمع، والوقوف مع بعضهم في الأفراح والأتراح، وفي الرقصات الشعبية أيضا ما يدل على ذلك، ففي تشابك الأيادي مثلا، والاصطفاف جنبا إلى جنب، ما يدل على هذا التكافل، ولذلك كانت هذه الطقوس لصيقة بحياتهم اليومية.

---

[1] المرجع السابق: djazainewns-info/trace/49772-2013-1-8-9-38tntm

خـــــاتـمة

توصلنا من خلال دراستنا لهذا الموضوع، إلى جملة من النتائج أهمها:

-أن القضايا الاجتماعية هي المسائل التي يشترك فيها الجماعة من الناس في المجتمع الواحد، فهي القاسم المشترك بينهم الذي يوحد جماعتهم.

أن الأديب كتب للجزائر وشعبها عن الجزائر، فصنع بذلك تاريخا للمنطقة ولنفسه بالكلمة والقلم ، إذ أسس الجمعيات، وكتب في الجرائد والمجلات ، وألف العديد من مجموعات القصص والروايات ، ولا تزال آثار ريشته وبصماته ثابتة على صفحات تاريخ الجزائر.

- أن تنقل الأديب لحبيب السائح بين مدينتي سعيدة وأدرار، منحه إحساسا بالانتساب للولاية التي أقام بها فترة من الزمن وقد أثر ذلك في أدبه فكانت روايته تلك المحبة بمكانها الصحراء الذي ميز تلك الرواية فتأثرت لغتها بذلك .

- للروائي لغته الخاصة، وأسلوبه الخاص في التعبير عن أفكاره وعن قضايا مجتمعه، فاعتمد لغة لا يفك شفرتها القارئ البسيط، الذي لا يتعدى فهمه الأسلوب البسيط مثله، بتعبير آخر، لقد خرج عن كل ما هو مألوف وتقليدي، وهو بذلك -على حد تعبيره-يسعى أن تكون كتاباته لغة قائمة بذاتها.

- كان الأديب في هذه الرواية يعالج قضايا جمة أهمها القضايا الاجتماعية التي سبق لنا ذكرها ، وهي قضايا مهمة في مجتمعنا الجزائري، وهو لا يرفض هذه المظاهر التي اختصت بها أدرار دون سواها لكنه يرفض السلبي منها.

-أن لحبيب السائح الروائي هو نفسه الإنسان، الذي يجاهد بكتاباته في سبيل التعريف بقضايا وطنه، إذ لم يطل على المجتمع من خلال برج عالي، ولم يقف مكتوف الأيدي أمام مشاهد المجتمع وقضاياه السلبية، بمعنى أنه لم يعش بعيدا عن مجتمعه ولم يغمض عينيه عن مساوئه، وإنما هو يتفاعل مع أحداثه ويكتب عن قضاياه، ويعالجها بقلمه، فكتب لأنه أدرك بوعيه الناضج أن تطور الأمة يكون بإعلاء مكانة المرأة، وكتب عن الدين وعن حق الإنسان في حرية اختياره، وقد نظر إلى المجتمع الأدراري فوجده مقيدا بأغلال العبودية، وحقوق المستضعفين مغتصبة، فكتب عنها، وعن الظلم، وعن حق الإنسان في العيش بحرية، وكتب عن سلبيات وإيجابيات طقوس المجتمع الأدراري، وهو حين كتب عن ذلك كله كان في كتابته دعوة إلى نبذ بعض المظاهر والقضايا السلبية التي من شأنها أن تشوه كل ما هو جميل وساحر في الصحراء.

- أن رواية تلك المحبة، لسان حال وترجمان آمال المجتمع الأدراري بامتياز، وسبب رواجها هو معالجة مختلف القضايا الاجتماعية من جهة، و الكشف عن المسكوت عنه من جهة أخرى .

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

1 المصادر والمراجع:

*القرآن الكريم، رواية ورش عن نافع

01- الأدب والمجتمع: دراسة في علم اجتماع الأدب، حسين عبد الحميد رشوان، المكتب الجامعي الحديث الإسكندرية، ط2005م .

02- الأنتربولوجيا الاجتماعية، عاصف وصيفي ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت لبنان

03- الدين والطقوس والمتغيرات: نور الدين طوالبي، ترجمة وجيه البغي، منشورات عويدات، بيروت لبنان.

04- السحر والمجتمع: دراسة نظرية وبحث ميداني: سامية حسن الساعاتي، دار النهضة العربية، للطباعة والنشر بيروت .

05- الصحاح في اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري: تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار: دار العلم للملايين، القاهرة، ط1 1376 هـ .

06- الكتاب الجزائريون: قاموس بيليوغرافي ، دار القصبة للنشر ،الجزائر ، عاشور شرفي ؛ تعريب مصطفى ماضي ط 2008 م.

07- المحيط في اللغة ،كافي الكفاة، الصاحب اسماعيل بن عباد، تحقيق، الشيخ محمد حسين آل ياسين، عالم الكتب، ط1 1414 هـ/1994 م.

08- المرأة في الرواية الجزائرية، مفقودة صالح، جامعة محمد خيضر، بسكرة الجزائر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم الأدب العرب، ط2، 2009 م

09- المشاركة الاجتماعية والسياسية للمرأة في العالم الثالث: د محمد سيد فهمي دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر الاسكندرية، ط 2008 م .

10- المعجم المفصل في الأدب، محمد التونجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان: ط2 1419 هـ/ 1999 م.

11- الموسوعة العربية العالمية، أول وأضخم عمل من نوعه وحجمه ومنهجه في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية، عمل موسوعي ضخم اعتمد في بعض أجزاءه على النسخة الدولية من دائرة: worod book iterna

tional شارك في انجازه أكثر من ألف عالم ومؤلف ومترجم ومحرر ومراجع عملي ولغوي ومخرج فني ومستشار ومؤسسة في جميع البلاد العربية.

12- تفسير القرآن العظيم، ابن القريشي الدمشقي، دار الندى لطباعة للنشر والتوزيع، بيروت، ط 1 1408 هـ/1998 م.

13- تلك المحبة، لحبيب السائح، منشورات فيسيرا، العاصمة الجزائر، ط 2013 م.

14- علم الاجتماع الريفي، غريب محمد سيد أحمد، وعبد الباسط محمد عبد المعطي، دار المعرفة الجامعية، ط 2004 م .

15- قضايا اجتماعية معاصرة، معين خليل العمر، دار الكتاب الجامعي، العين.

16- لسان العرب المحيط ، ابن منظور، دار الجيل بيروت ، (د ، ط)، 1408هـ/1988م، ج5.

17- لسان اللسان، ابن منظور، دار الكتاب اللبناني، بيروت لبنان، ط1، ج1.

18- محيط المحيط، بطرس البستاني، مكتبة لبنان ناشرون، 1998م .

19- معجم المصطلحات الأدبية، فتحي ابراهيم، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، الجمهورية التونسية،ط 8، 1988 م، ج1.

20- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة وكامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984 م، ص183.

21- معجم الوسيط، ابراهيم أنيس وآخرون، دار العودةج2.

22- معجم مصطلحات الخدمة الاجتماعية والعلوم الاجتماعية، عبد العزيز عبد الله الدخيل، دار المناهج للنشر والتوزيع، ط1 1426 هـ/ 2006 م

23- معجم مصطلحات نقد الرواية، عربي- انجليزي- فرنسي، لطيف زيتوني، مكتبة لبنان ناشرون ، دار البهاء للنشر.

24- مقاييس اللغة، أبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق، عبد السلام محمد هارون، دار الجيل بيروت،ط1، 1411 هـ/ 1991 م.

25- موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، تأليف مجموعة من الأساتذة، دار الحضارة، ط2003 م.

2 الدوريات:

1-القضايا الاجتماعية في أدب جبران خليل جبران: مذكرة ماجستير: عبد الرحمن قيوش، إشراف محمد عبد المطلب، ومصطفى عبد الشافي الشوري، القاهرة، 1410 هـ/1990 م .

2-الملتقى الوطني الثالث للحكاية السردية، تحت شعار "السرد والصحراء"، من 1 إلى 3ديسمبر 2013 ،دار الثقافة لولاية أدرار.

3 المواقع الإلكترونية:

1-العتبات النصية في رواية تلك المحبة: الدكتور حاج أحمد الصديق، جامعة أدرار، نقلا عن الموقع الإلكتروني: http//ar-ar-faeboo.com/pages/23075168948179 تاريخ الدخول للموقع: 25-01-2014 م.

2-محاولة قراءة سيسيولوجية في تلك المحبة للروائي لحبيب السائح، باية شياخ : جامعة أدرار، الثلاثاء 8 يناير 2013 م ،10:40 ، نقلا عن الموقع الإلكتروني: djazainewns-info/trace/49772-2013-1-8-9-38tntm تاريخ الدخول للموقع:25-01-2014 م.

فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة

الإهداء

شكر وعرفان

مقدمة.....ص أ – ب

الفصل الأول: قراءة في مصطلحات العنوان

القضايا الاجتماعية.....ص 04

الرواية.....ص07

لحبيب السائح.....ص11

تلك المحبة.....ص13

الفصل الثاني: القضايا الاجتماعية في رواية تلك المحبة

قضية المرأة.....ص25

قضية الدين.....ص28

قضية العبودية والحرية.....ص31

قضية السحر والشعوذة.....ص33

الطقوس والرموز الثقافية.....ص36

خاتمة.....ص39

قائمة المصادر والمراجع.....ص42

فهرس الموضوعات.....ص45